

جامعة محمد خيضر بسكرة
كلية الآداب و اللغات
قسم الآداب واللغة العربية



مذكرة ماستر

تخصص : أدب عربي قديم

إعداد الطالب:

عويسي جمال - دمار رحيمة

يوم: 30/08/2020

رمزية الماء في ديوان ابن خفاجة (باب الوصف أنموذجا)

لجنة المناقشة:

رئيسا	أ. مح ب	جامعة محمد خيضر بسكرة	هنية مشقوق
مشرفا	أ. مح أ	جامعة محمد خيضر بسكرة	زوزو نصيرة
مناقشا	أ. مس ب	جامعة محمد خيضر بسكرة	صليحة سبباق

شكر وعرّفان

نتقدّم بكلمة حب وتقدير وتحية وفاء وإخلاص ، تحية ملؤها كل معاني الاحترام ، تحية من القلب ، شكرا من كل قلبي إلى أستاذتنا " نصيرة زوزو " التي أشرفت علينا في إنجاز بحثنا إلى جميع أساتذتي الذين رافقونا في دربنا إلى زملائنا وأصدقائنا وإخوتنا في مسارنا الجامعي نشكركم على مرافقتنا طيلت سنين كانت من أجمل مراحل حياتنا ونتمنى التوفيق من الله لنا ولكم في باقي حياتنا وأن يحقق لنا ما يسعدنا فيها ويبعد عنا ما يحزننا (أمين أمين يا رب العالمين).

فهرس المحتويات :

- مقدمة.....أ- د
- الفصل الأول : رمزية الماء وحضوره في القرآن الكريم والشعر العربي القديم :
- تمهيد.....7
- 1- ماهية الرّمز :
- 1-1- تعريف الرّمز لغة واصطلاحا.....8-10
- 1-2- أنواع الرّمز.....11
- 1-2-1- الرّموز الخاصّة.....11
- 1-2-2- الرّموز العامّة.....12-20
- 2- ماهية الماء :.....21
- 2-1- تعريف الماء لغة واصطلاحا.....21-22
- 2-2- الماء في القرآن الكريم.....23-24
- 2-3- حضور الماء في الشعر العربي القديم.....25
- 2-3-1- في الشعر الجاهلي.....25-29
- 2-3-2- في شعر صدر الإسلام.....29-32
- 2-3-3- في الشعر الأموي.....33-35
- 2-3-4- في الشعر العباسي.....35-38
- 2-3-5- في الشعر الأندلسي.....38-41

- الفصل الثاني : مسميات الماء وأبعاده الدلالية في ديوان "ابن خفاجة" (باب الوصف) :

تمهيد.....44

1- المفردات والألفاظ الدالة على الماء في شعر ابن خفاجة (باب الوصف) :.....45

1-1 مسميات الماء.....45-47

1-2 مسميات المطر.....47-51

1-3 مسميات السحاب.....52-54

1-4 مسميات البحر والأنهار والوديان والسيول والجداول.....54-58

1-5 مسميات الثلجيات.....58-59

1-6 مسميات الآبار والبرك.....59-60

1-7 إحصاء مسميات الماء60-63

2- الأبعاد الدلالية للماء في شعر ابن خفاجة :.....64

2-1 البعد السياسي64-66

2-2 البعد النفسي.....66-70

2-3 البعد الاجتماعي.....70-76

- خاتمة.....77-79

- قائمة المصادر والمراجع.....80-85

- الملحق (نبذة عن حياة ابن خفاجة).....86-93

- ملخص.....94-95

مقدّمة :

الأندلس هي قصّة حقيقة تاريخية خالدة ، وهي تلك البطولة الرائعة التي نادرا ما تقدّمها أمة من الأمم والتي قدّمتها الأمة الإسلامية حين كانت دولة عظيمة شامخة والتي كانت نهايتها من خلال الحملات المتوالية عليها من قبل النصارى ، وانتهت بسقوط آخر مملكة وهي غرناطة كآخر الممالك الإسلامية في الأندلس ، وبقيت قصتها مسطرة عبر التاريخ خالدة ، غير أنّها ذكرى حزينة للأمة الإسلامية لكونها خسارة كبيرة بكل معنى الكلمة ، هذه الأندلس التي كان لها ما كان من جمال ربّاني ، فعدتّ جنّة على الأرض لما تميّزت به من خيرات و سحر لأعين الناظرين ، بطبيعتها الخلّابة الساحرة ، فقد شكّلت الطّبيعة الأندلسية جزءا كبيرا من كيان وشخصية الأندلسيين ، حيث استمدّوا منها سعادتهم وجمالهم ، لتظلّ هذه ميزة تتفرد بها الأندلس عن باقي البلدان .

وكلّ الأمم التي اعتنت بالعلوم والأدب ، فقد كانت أمة تهتم بالأدب وكان الشعر رفيقا لها وشاع فيها ، كون الطّبيعة الأندلسية كانت مصدر إلهام الشعراء لنظم قصائدهم وأشعارهم التي اختلفت أغراضها من غزل ومدح وحنين ... وقد كان للطّبيعة نصيب كبير في قصائدهم اتّخذوا من عناصرها رموزا يعبرون بها في أشعارهم والتي تحمل إحياءات مختلفة ، من بين هذه العناصر التي حظيت بمكانة مرموقة في أشعارهم نجد عنصر المائيات أو الماء باختلاف مسمياته الذي أخذ ملمحاً بارزاً في شعرهم ، فقد تسابق الشعراء في وصف عناصر الطّبيعة بصفة عامّة ومن بين الشعراء الذين تميّزوا في وصف الطّبيعة الأندلسية الشاعر " ابن خفّاجة" الأندلسي والذي لقّبوه بجنّان الأندلس هذا الشاعر الكبير الذي عشق الطّبيعة الأندلسية فقام برسم لوحات فنية جسّدها بلغة الشعر ، ومن الأسباب التي قادتنا لاختيار هذا الموضوع :

- هو ما يتمتع به ابن خفّاجة من صيت ومكانة شعرية عالية في الأدب .

- وأنّ ابن خفّاجة من الشعراء الذين لم يتكسّبوا في شعرهم ولم يتوجّه بشعره لاستماحت الملوك رغم توافدهم عليه ، لكنّه عندما مدحهم كان مدحه إعجاباً لا تكسّباً .

- محاولة بناء صورة في مخيلتنا للحضارة الإسلامية الأندلسية الضائعة ، التي فتحت بقوة الرجال والحديد .

- الاطّلاع على حياة مجتمع الأندلس الإسلامية ، تلك القصّة الخالدة عبر التاريخ والمجد الضائع منّا .

- تأثّرنا بأشكال الطّبيعة الأندلسية الساحرة بشكل عام .

- السعي للاطّلاع على معالم الحضارة الإسلامية التي تمّ بناءها بسواعد من ذهب ، وشغفنا بتاريخنا الغابر ، حين كانت الأمة الإسلامية تسود العالم وتقوده ومحاولة منّا استنكاره .

وبالتالي جاء عنوان بحثنا مندرج كما يلي : **رمزية الماء في ديوان " ابن خفّاجة "** **أنموذج (باب الوصف).**

وللبحث في هذا الموضوع كان علينا طرح التساؤلات التالية :

ما الرّمز؟ وما أنواعه؟ وهل كان الماء حاضراً في الشعر القديم؟ وما هي مفردات الماء في شعر "ابن خفّاجة"؟ هل جاءت معبرة لما أرادها الشاعر؟ وهل تعدّدت دلالاتها وأبعادها في شعره؟ وماهي هذه الأبعاد التي حملها عنصر الماء في شعره؟

وللإجابة على هذه الأسئلة رسمنا خطة لبحثنا مشكّلة من مقدمة وفصلين وخاتمة ، جاء الفصل الأول نظرياً بعنوان : **رمزية الماء وحضوره في القرآن والشعر العربي القديم.**

وقد تناولنا فيه :

- تعريف الرّمز لغة واصطلاحاً ، مع ذكر أنواع الرّموز .

- تعريف الماء لغة و اصطلاحا ، وحضور الماء في القرآن الكريم والشعر العربي القديم : (في الشعر الجاهلي - في شعر صدر الإسلام - في الشعر الأموي - في الشعر العباسي - في الشعر الأندلسي).

أمّا الفصل الثاني فكان تطبيقيا موسوما ب: مسميات الماء وأبعاده الدّالّية في شعر "ابن خفّاجة" وقد تطرقنا فيه إلى :

- المفردات والألفاظ الدّالّة على الماء (مفردات الماء - مفردات المطر - مفردات السحاب - مفردات الجداول والبحار والأنهار والسيول والوديان - مفردات الثلجيات) وإحصاء لتعداد مفردات الماء في هذا الباب .
- أبعاد الماء الدّالّية في شعر ابن خفّاجة (البعد السياسي - البعد النفسي - البعد الاجتماعي) .

وأنهينا البحث بخاتمة ضمت مجموعة من النتائج التي تحصّلنا عليها والتي كشفت عنها الدراسة وأبانتها لنا .

وفي سبيل معالجة هذا الموضوع اعتمدنا على جملة من المناهج هي : الوصفي والتاريخي والإحصائي ، باعتبارهم أنسب المناهج النقدية لدراسة هذا الموضوع والإحاطة بحيثياته .

وقد استندنا في هذا البحث على جملة من المصادر والمراجع نذكر من أهمها : ديوان "ابن خفّاجة" ، وكتابا : رمزية الماء في التراث الشعري العربي لعزير عرياوي ، وتاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف .

وكغيره من البحوث لم يخلُ عملنا من العوائق والعقبات التي اعترضت طريق سيرنا فيه ، فقد جابهت مسيرتنا البحثية جملة من العوائق والعقبات ، منها :

- انتشار الوباء الذي حال بيننا في سبيل الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات والتعليمات من المشرف والتقييد بها .
- قلّة التواصل المباشر فيما بيننا (الزملاء) وصعوبته من أجل تبادل المعلومات .
- الاعتماد بشكل كبير على الإنترنت في إنجاز العمل والتعامل فيما بيننا .
- صعوبة الحصول على المراجع وقتّها بسبب غلق المكتبات وأماكن المطالعة .
- الاحباط والملل وقلّة المحفّزات والدوافع المعنوية بسبب البعد عن الأجواء الدراسية في الجامعة .

غير أنّها كانت هيّنة لتحليّنا بروح الإرادة والشوق للوصول إلى تذوق لذّة وطعم الهدف والمُبْتَغَى الذي نسعى إليه ، والصبر كان سبيلنا ورفيقنا وملازمنا في دربنا ، حتّى لَقِيَ بحثنا هذا النور للوجود وأخذ مكانه في المجال ، نأمل أن نكون قد أضحنا عقبة وأن نكون قد كشفنا ولو جزءا يسير من العتمة عن هذا الموضوع حتى وإن كان بسيطا .

ولا يسعنا في الأخير إلّا أن نشكر الأستاذة التي أشرفت علينا في كلّ خطوة حَطِينَاها من أجل هذا البحث وفي سبيل إكماله ، فلم تبخل علينا بتعليماتها وأفكارها وزادها المعرفي .

ونسأل الله في الأخير التوفيق والسداد ، فما توفيقنا إلّا به عليه توكلّنا وإليه ننيب .

الفصل الأول

رمزية الماء وحضوره في القرآن الكريم والشعر العربي القديم .

- رمزية الماء وحضوره في القرآن الكريم والشعر العربي القديم .

1 : ماهية الرّمز :

1-1- تعريف الرّمز لغة واصطلاحاً .

1-2- أنواع الرّموز :

1-2-1 - الرّموز الخاصة .

1-2-2 - الرّموز العامة .

2 : ماهية الماء :

2-1 - تعريف الماء لغة واصطلاحاً .

2-2 - الماء في القرآن الكريم .

2-3 - حضور الماء في الشعر العربي القديم :

2-3-1 - في الشعر الجاهلي .

2-3-2 - في شعر صدر الإسلام .

2-3-3 - في الشعر الأموي .

2-3-4 - في الشعر العباسي .

2-3-5 - في الشعر الأندلسي .

تمهيد :

إنّ الشعر العربي غني بالرموز ، كون لغة الشعر لغة إيحائية ، فهي إيحاء لخلجات النفس ، ومن هنا فالرمز يعد ميزة فنية يلجأ إليها الشعراء لإيصال ما يشعرون به بطريقة غير مباشرة ، فغالبا ما تكون اللّغة عاجزة عن التعبير وإيصال الأحاسيس مباشرة ، ليقوم مقامها الرّمز كبديل لها ليجسد انفعالات الشاعر التي لم تستطع اللّغة المباشرة إيصالها ، ويفتح الباب لتداعي المعاني المختلفة في ذهن المتلقي والقارئ ، حيث من خلال توظيف اللّغة الرّمزية يقوم ببث الحركة في ما هو جامد وفي اللفظ الواحد العديد من المعاني والتأويلات .

فاللّغة الرّمزية تحمل شحنات إيحائية لدى المتلقين غير ما تحمله اللّغة المباشرة وهذا ما أدّى بالشعراء إلى اعتماد اللّغة الرّمزية بأشكال مختلفة في أشعارهم ، وهو أيضا من خلال هذا يقوم بطريقة ما بجعل القارئ عنصراً مشاركاً في العملية الإبداعية ، لما يتوجه إليه في قراءته المختلفة وتأويلاته ومحاولته للوصول إلى مقصد الشاعر الحقيقي فهو يكشف عن دلالات جديدة غير ما قصدها الشاعر ، وهذا من خلال ما تبادر إليه في ذهنه من معاني مباشرة أو غير مباشرة وإيحاءات غير محدودة ، وهذه الميزة التي تتميز بها لغة الرّموز وهي تعدد التأويلات للفظ الواحد باختلاف الأشخاص ، وهذا ما سنتطرق إليه في بحثنا .

1- ماهية الرّمز :

1-1- تعريف الرّمز لغة واصطلاحاً :

تعددت التعريفات اللّغوية للفظه رَمَزَ إِلَّا أَنَّهَا صَبَّتْ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ ، ففِي مَعْجَمِ الْعَيْنِ نَجِدُ: يَقُولُ " وَالرَّمْزُ بِاللِّسَانِ : التَّصْوِيتُ الْخَفِيُّ ، وَيَكُونُ الرَّمْزُ : الْإِيْمَاءُ بِالْحَاجِبِ بَلَى الْكَلَامِ ، وَ مِثْلُهُ الْهَمْسُ (...) وَقَدْ يُقَالُ لِلجَّارِيَةِ الْغَمَّازَةِ الْهَمَّازَةَ بِعَيْنَيْهَا وَاللَّمَّازَةَ بِفَمِّهَا رَمَّازَةً ، تَرْمِزُ بِفَمِّهَا ، وَتَغْمِزُ بِعَيْنَيْهَا ، وَ يُقَالُ : الرَّمْزُ : تَحْرِيكُ الشَّفَتَيْنِ ¹

أَمَّا فِي الْقَامُوسِ الْمَحِيْطِ لِلْفَيْرُوزِ أَبَادِي فَنَجِدُ ؛ أَنَّ الرَّمْزَ يَقْصِدُ بِهِ الْإِشَارَةَ بِأَحَدِ أَعْضَاءِ الْجِسْمِ دُونَ الْكَلَامِ " وَالرَّمْزُ الْإِشَارَةُ أَوْ الْإِيْمَاءُ بِالشَّفَتَيْنِ أَوْ الْعَيْنَيْنِ أَوْ الْحَاجِبِينَ أَوْ الْيَدِ أَوْ الْفَمِّ أَوْ اللِّسَانِ ، يُرْمِزُ وَ يَرْمِزُ ، وَ الرَّمِيزُ الْكَثِيرُ الْحَرَكَةُ ²

وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ جَاءَ ؛ "الرَّمْزُ تَصْوِيتُ خَفِي بِاللِّسَانِ كَالْهَمْسِ ، وَيَكُونُ بِتَحْرِيكِ الشَّفَتَيْنِ كَلَامٌ غَيْرٌ مَفْهُومٌ بِاللَّفْظِ مِنْ غَيْرِ إِبَانَةٍ بِصَوْتٍ إِتْمًا هُوَ إِشَارَةٌ بِالشَّفَتَيْنِ وَقِيلَ : الرَّمْزُ إِشَارَةٌ وَإِيْمَاءٌ بِالْعَيْنَيْنِ وَالْحَاجِبِينَ وَالشَّفَتَيْنِ وَالْفَمِّ ، وَالرَّمْزُ فِي اللُّغَةِ يَعْنِي كُلَّ مَا أُشْرَتْ لَهُ مِمَّا يَبِيْنُ بِلَفْظٍ لِأَيِّ شَيْءٍ أُشْرَتْ إِلَيْهِ بِيَدٍ أَوْ بِعَيْنٍ وَ رَمَزَ يَرْمِزُ وَيَرْمِزُ رَمَازًا ... رَمَزْتَهُ الْمَرْأَةَ بِعَيْنَيْهَا تَرْمِزُهُ رَمَّازًا : غَمَزْتَهُ وَ جَارِيَةٌ رَمَّازَةٌ : غَمَّازَةٌ " ³

وَفِي الْقُرْآنِ ذَكَرْتَ لَفْظَةَ الرَّمْزِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى >> قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَّازًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ << ⁴

¹ الخليل ابن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين ، ج2 ، تح/ الدكتور عبد الحميد هندواوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص149.

² الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، تح/ عبد المنعم العرفسوسي ، مؤسسة الرسالة للطباعة ، بيروت ، لبنان ، ط8 ، 1426هـ/2005م ، ص512.

³ أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، ج5 ، دار الصادر بيروت ، لبنان ، مادة (ز م ر) ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص 356،357.

⁴ آل عمران/ 41.

وفي هذه الآية المقصود بالرمز هو الإشارة والإيماء للناس بدل التكلم معهم .

أمّا في الاصطلاح فقد عرف مصطلح الرّمز العديد من التعريفات باختلاف الباحثين والدارسين ، إذ نجد :

" رمز : شيء يعتبر ممثلاً لشيء آخر ، وبعبارة أكثر تخصيصاً فإنّ الرّمز كلمة أو عبارة عن تعبير آخر ، يمتلك مركباً من المعاني المترابطة و بهذا المعنى ينظر إلى الرّمز باعتباره يمتلك قيمة تختلف عن قيم أي شيء يرمز إليه ، كائناً ما كان ، وبذلك يكون العَلَمُ وهو قطعة من القماش يرمز إلى الأمة ، و الصليب يرمز إلى المسيحية "¹ فالرمز شكل من أشكال التعبير ، وهو في حقيقته صورة لشيء تحمل في طياتها العديد من المعاني.

وجاء في المعجم الأدبي أنّ " الرّمز كل إشارة أو علامة محسوسة تذكر شيء غير حاضر ، من ذلك العلم رمز الوطن ، و الكلب رمز الوفاء ، والحمامة البيضاء رمز البراءة ، الهلال رمز الإسلام ، والصليب رمز المسيحية ."²

ويذكر ابن رشيق في عمدته بأن لغة الإشارة صفة مميزة في الشعراء فيقول: "والإشارة من مراتب الشعر وملحه ، وبلاغة عجيبة تدلّ على بعد المرمي وفرط المقدرة ، وليس يأتي بها إلا الشاعر المبرز والحاظق الماهر ، وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة واختصار وتلويح يعرف مجملاً ، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه ."³ فالإشارة والترميز في الشعر لا يتقنه إلا الشاعر الحاذق المتمكن من اللّغة ، وهي بلاغة عجيبة في الشعر لا يتقنها إلا ذو الكفاءة والمقدرة ، كما أنّ الرّمز في تعريفه أدبياً

¹ إبراهيم فتحي ، معجم المصطلحات الأدبية ، التعااضدية العمالية للطبع والنشر ، سفاقس ، تونس ، ع 1 ، 1986م ، ص171.

² جبور عبد النور ، المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1979م ، ص123.

³ أبي الحسن علي ابن رشيق القيرواني ، العمدة في صناعة الشعر ونقده ، ج1 ، مطبعة دار السعادة ، القاهرة ، مصر ، ط3 ، 1225هـ/1907م ، ص206.

هو: " الإشارة بكلمة تدلّ على محسوس أو غير محسوس ، إلى معنى غير محدّد بدقة ومختلفة حسب خيال الأديب ، وقد يتفاوت القراء في فهمه وإدراك مداه بمقدار ثقافتهم ورهافة حسهم ، فيتبيّن بعضهم جانبا منه وآخرون جانبا ثانيا ، أو قد يبرز للعيان فيهتدي إليه المثقف ببسر، ومن ذلك أن الشاعر يرمز للموت بتهافت أوراق الشجر في الخريف ، ويرمز إلى الإحساس بالقلق والكآبة بقطرات المطر المتساقطة على زجاج نافذته في رتابة مضمّنية ."¹

من خلال هذا نجد أنّ الرّموز تتفاوت في درجة الغموض ، منها ما هو سهل يهتدي إليه الكل ، ومنها ما استوجب على القارئ أن يكون ذا خلفية ثقافية لتمكّنه من فك وتحليل هذه الرموز .

" وقد عرّف بعضهم الرّمز بأنّه مثير بديل يستدعي لنفسه نفس الاستجابة التي قد يستدعيها أي شيء آخر عند حضوره ، ومن أجل هذا قيل أن الكلمات رموز ، لأنّها تمثل شيئا غير نفسها ."²

فالرّمز عبارة عن استدعاء لمعاني مختلفة غائبة غير حاضرة ، عن طريق بديل لها ، هذا البديل الذي يخلف بشكل تام هذه الأشياء الغير حاضرة ، فيوحي إليها ولا يصفها مباشرة فهو بهذا يجعل القارئ والمتلقي يبحث عن التأويل المناسب له بمجرد ذكره أو استحضاره تتبادر المعاني في الأذهان باختلاف القراء وبحسب زدهم الثقافي وعليه " إن الرّمز لا يقرر ولا يصف ، بل يومئ ويوحي بوصفه تعبير غير مباشر عن النواحي النفسية ، وصلة بين الذات والأشياء ."³

يتبين أن الإيحاء وظيفية الرّمز ، لأنّه تعبير غير مباشر وغير مصرح لمعانيه ومقاصده.

¹ جبور عبد النور ، المعجم الأدبي ، ص124.

² أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، عالم الكتب ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1985م ، ص12.

³ محمد فتوح أحمد ، الرّمز والرّمزية في الشعر المعاصر ، دار المعارف ، مصر ، (د.ط) ، 1977م ، ص41 .

2-1- أنواع الرّمز:

يعدّ الرّمز أداة فنيّة يستخدمها الشعراء للتعبير عن أحاسيسهم ومشاعر تخرج صدورهم دون الإفصاح عنها مباشرة ، حيث يقول " مالرو malro : تعريف الرّمز هو أنّ الرّمز يعبر عمّا لا يمكن التعبير عنه إلّا به ¹.

فالرّمز اختصار للعديد من المعاني و المكبوتات التي عجزت عنها اللّغة المباشرة وجب على القارئ والمتلقي فكّ شفراتها ومدلولاتها ، وعليه فقد تنوعت الرّموز وانقسمت إلى رموز خاصة وأخرى عامة.

1-2-1- الرّموز الخاصّة:

تُعرّف أنّها رموز ذاتية تختلف من شخص لآخر ، " هي الرموز الخاصّة بذات الفنان ، وهي تلك الرّموز ذات المعاني والدلالات الكامنة ، التي لا يفهم معناها سوى الفنان نفسه ، والتي يتم تحميلها بدلالات ومعاني ومضامين خاصة تختلف مضامينها عما قد تمثله هذه الرّموز بالنسبة للمتلقي ².

فهذه الرّموز جاءت من انفعالات الفنان النفسية الخاصّة فتكون ذات معاني خاصّة وكامنة متعلقة بذات الفنان نفسه ، حيث جاءت هذه الرّموز نتيجة معاناة وتجارب صادفها هذا الكاتب ما أدّى به إلى ابتكار هذه الرّموز للتعبير عن ما يختلج نفسه حيث تختلف معانيها من شخص لآخر ، ومنه قد تحمل عدة مدلولات لدى القارئ على اختلاف ملكاتهم المعرفية ، مثلاً : " الحلقات المتصلة مع بعضها لتصوير سلاسل في عمله كرمز للتلاحم والارتباط والتواصل والاتحاد ، أو العكس قد يرمز بها إلى العبودية

¹ فيليب سيرنج ، الرّموز في الفن - الأديان - الحياة ، دار دمشق ، تر/ المحامي عبد الهادي عباس ، سورية ، دمشق ، ط1 ، 1992م ، ص41.

² إسماعيل عباس العبيدي ، العلامة التجارية دلالاتها الوظيفية والتعبيرية ، أمواج للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2014م ، ص46.

أو السجن أو الانقطاع (...) فالسلاسل المقطوعة مثلا قد ترمز إلى التحرر أو الموت أو الفرقة.¹

أي أنّ هذه الرموز الخاصة رموز يبتكرها الفنان من خلال فكره حيث توحى تلك الرموز في نفسه إلى ما يشعر به ، وهي رموز ذاتية تختلف معانيها عند الآخرين من المتلقين .

2-2-1- الرموز العامة :

هي رموز غير تلك الخاصة حيث إنّها " تخصّ المجتمع بأسره والتي يتفق الجميع على فهم معانيها ودلالاتها بحسب قواعد العرف والتقاليد والدين والقيم المختلفة ".²

تتقاطع هنا هذه الرموز العامة مع الموروث والعادات والتقاليد التي يتعارف عليها جميع أفراد المجتمع الواحد حيث يتفقون على فهم معناها الواحد الذي تدلّ عليه في عرفهم مثال " إنّ علم كل دولة هو رمزها ، وحلقات الزواج رمز عام معناه الارتباط في أغلب الأحيان في أغلب المجتمعات والماء رمز للحياة ، والنخلة رمز الإنسان ورمز البساطة وغيرها من الأمثلة ".³

تتعدّد الرموز العامة وتتفرع إلى عدة أنواع مختلفة ، منها ما يستند إلى أسس دينية ومنها ما هو أسطوري أو تاريخي أو أدبي أو طبيعي أو صوفي أو غير ذلك وهنا سنذكر بعضاً من هذه الأنواع :

1-2-2-1- الرموز الديني:

يعد الدين مصدر هام من المصادر التي ينهل منها الشعراء تلك الشخصيات والأحداث والخصال كرموز يوظّفونها في شعرهم لامتلاكها القدرة الإيحائية فقد " كان التراث في كل الصور ولدى كل الأمم مصدرا سخيا من مصادر الإلهام الشعري ، حيث يستمدّ منه

¹ المرجع السابق ، ص46.

² المرجع نفسه ، والصفحة نفسها.

³ المرجع نفسه ، والصفحة نفسها.

الشعراء نماذج وموضوعات وصور أدبية والأدب العالمي حافل بالكثير من الأعمال الأدبية العظيمة التي محورها شخصية دينية أو موضوع ديني أو التي تأثرت بشكل أو بآخر بالتراث الديني.¹

فقد استلهم الشعراء من الموروث الديني رموزا وجسودها في أعمالهم الأدبية واستغلّ معانيها وإيحاءاتها أحسن استغلال ، ومن أمثلة الرموز الدينية نجد الشيطان والذي أصبح رمز يدلّ على دلالة التّمرد " فأمل دنقل يعتبره في كلمات سبارتكوس الأخيرة رمز للتّمرد الحر الذي دفع في سبيل حريته (...) كما نجد شخصية قابيل ، فقابيل رمز لكل سفاح ، ولكل قاتل ، ولكل معتد (...) خصوصا إذا كان ضحيته يمتّ إليه بصلة ما ."² ومن الرموز أيضا نجد " شخصية أيوب عليه السلام فهو رمز للصبر على البلاء والإيمان في المحن والرضا التام بقضاء الله ."³

وقد كان الدين الإسلامي مصدرا للغرب يأخذون منه ويوظّفونه في أعمالهم وهذا إذا ما دلّ إنّما يدلّ على تأثر الغرب بالتراث الديني الإسلامي وإطلاعهم عليه ومحاولة النهل منه ما يتفق مع أفكارهم.

وكدليل على تأثرهم بديننا نجد " من الشعراء الأوربيين الكبار الذين استلهموا المصادر الإسلامية في أعمالهم الأدبية الشاعر الكبير دانتي في ملحمة الشهيرة الكوميديا الإلهية حيث استلهم فيه حديث المعراج النبوي ."⁴

فالتراث الديني ثري بالرموز الموحية و الدالّة على المعاني الكثيرة ولاسيما رموز ديننا الإسلامي الذي يجسد معاني عميقة في حياتنا.

¹ علي عشترى زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، (د.ط) ، 1417هـ/1997م ، ص75.

² المرجع نفسه ، ص100،101.

³ المرجع نفسه ، ص90.

⁴ المرجع نفسه ، ص 75.

2-2-2-1- الرّمز الصوفي :

لقد كان للموروث الصوفي نصيب في أعمال الأدباء ، حيث استمدوا منه صورا ورموزا عبروا بها عن تجارب قاموا بها في حياتهم أو صادفتهم ، ومن متصوّفينا من عرف عنهم بالشعر ، " وليس أدلّ على عمق الرابطة التي تربط الصوفي بالشاعر ، من أنّ متصوّفينا الكبار أمثال "الحلاج" و"ابن عربي" و"ابن الفارض" و"رابعة" وسواهم ، كانوا في نفس الوقت شعراء كبار.¹

فقد استخدم أدباءنا وشعرائنا هذه الرّموز الصوفية في أعمالهم الأدبية للتعبير ، فتعدّدت هذه الرّموز إذ نجد " هناك شخصيات أخرى كشخصية الغزالي وحمدون القصار ورابعة العدوية ."²

هذه الشخصيات التي تعدّ رموز صوفية تحمل في طياتها عدة دلالات ، حيث يتم توظيفها في الأعمال الأدبية قصد ابراز تجربة أو شعور معين يختلج ذلك الأديب ، فيقوم باللجوء إلى هذه الرّموز ، "وليس الرّمز في الشعر الصوفي راجعا إلى الكنايات البعيدة وحدها ، وإطلاق أسماء من قبيل الرّموز الخفية على مسميات لإيراد التصريح بها ، كإطلاقهم الخمرة على لذّة الوصل ونشوته ، وإطلاقهم سعدى و لبنى على المحبوب الأعلى"³ ، هم بهذه المسميات يعبرون بها عن معاني وجدانية ، خاصّة بهم وليست تعني ما هو سطحي مباشر .

حيث يجعل من معاني الأشياء المادية رداء لما يختلجه ، "والمعاني الحسية التي يستعملها الصوفيون في الدلالة على المعاني الروحية يرمزون بها إلى مفاهيم وجدانية على الرغم من الرداء المادي الذي تبدو فيه ، ومن ثم استعمل الصوفيون الوصف الحسي

¹ المرجع السابق ، ص105.

² المرجع نفسه ، ص119.

³ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، الأدب في التراث الصوفي ، مكتبة غريب للطباعة ، القاهرة ، مصر ، (د.ط) ،

(د.ت) ، ص181.

والغزل الحسي والخمر الحسية ، وأرادوا بها معاني روحية.¹

ونجد أمثال "الحلاج" و"ابن الفارض" ممن استعملوا الرّمز ، حيث نجد في شعرهم هذه المعاني ، يقول "ابن الفارض" في هذا البيت :

" أَرَجَ النَّسِيمُ سَرَى مِنَ الزُّورَاءِ *** سِحْرًا فَأَحْيَا مَيِّتَ الْأَحْيَاءِ

يريد بالنسيم لذة المشاهدة الموصلة إلى القرب ، وبالزوراء القدس الأعلى ، وبالسحر وقت التهجد والتقرب إلى الله ، وبالحياء القرب من الله ، وميت الأحياء هو البعيد عن القرب من مولاه .²

قد شاع عند الصوفيين الغموض والإشارة في أشعارهم ، وعدم تصريحهم لما يشعرون به مباشرة ، فلا تكاد تفهم مضامينها ولا أمكن لنا الوصول إلى ما تعنيه ، بل وجب البحث عنها في كتبهم "ومع ذلك فقد ابتكر الصوفيون ألفاظا جديدة لهم هي أقرب إلى المصطلحات العلمية التي لا يقف على معانيها إلا الواصلون منهم ، على أن كتب التصوف ، ومصادره الأولى على الأخص ، تشرح كثيرا من معاني هذه المصطلحات وتحاول تقريبها للفهم ومن مثل هذه المصطلحات : السفر ، والطريق ، والمقام ...³

إن الرّموز الصوفية وجب على القارئ البحث عليها لا فهم معناها الضاهر الحسي.

3-2-2-1- الرّمز التاريخي :

لطالما كان التاريخ خالدا عبر الأجيال ، فعبر الزمن والسنين تتصادف الأحداث وهناك منها من يخلد نفسه لمدى أهميته وأسبقيته فيبقى راسخا عبر العصور ينتقل عبر الأجيال مخلدا في ذاكرتهم ، "فالأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية ليست مجرد ظواهر

¹ المرجع السابق ، ص182.

² المرجع نفسه ، ص188.

³ المرجع نفسه ، ص183.

كونية عابرة تنتهي بانتهاء وجودها الواقعي ، فإن لها إلى جانب ذلك دلالاتها الشمولية الباقية والقابلة للتجدد ، على امتداد التاريخ في صيغ وأشكال أخرى.¹

فالتاريخ يبقى مسجلا لهذه الأحداث والوقائع في الأذهان ، وتبقى خالدة عبر العصور والأزمان ، بمجرد ذكرها يتبادر في ذهننا تلك الواقعة ، لهذا تصبح رموزا ، " فدلالة البطولة في قائد معين أو دلالة النصر في معركة معينة تظلّ بعد انتهاء الوجود الواقعي لذلك القائد أو تلك المعركة باقية وصالحة لأن تتكرر من خلال مواقف جديدة وأحداث جديدة."²

حيث تصبح رمزا دالّا في الأذهان على تفاصيل ومعاني معينة ، بمجرد ذكرها تحضر في مخيلتنا تلك التفاصيل ، بحكم الأسبقية إليها عن غيره ، ومن الرموز التاريخية شخصية "الحجاج ابن يوسف" " تمثيلا مع الحق بالقوة ، لمعنى البطش فهو في رؤيا شعرائنا رمز لكل قوة باطشة تعمل على القمع وعلى إخماد كل صوت يحاول أن يرتفع في وجه طغيانها."³

فالرموز التاريخية تبقى خالدة فالأذهان على مرّ العصور والأزمان ولا تزول ، كما أنّها قابلة للاستحضار في مواقف أخرى جديدة .

4-2-1- الرّمز الأدبي :

إن التراث الأدبي غني بالرموز الموحية المعبرة على العديد من الجوانب الحياتية ، سواء الجوانب السياسية أو الاجتماعية أو النفسية أو غيرها من الدلالات الأخرى ، من بين هذه الرموز التي اشتهرت في مجال الأدب ، نجد رمز معروف وهي "شخصية الخنساء التي ارتبط اسمها بعاطفة التّفجّع والحزن في تراثنا الشعري ، وأصبحت

¹ علي عشتري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، ص120.

² المرجع نفسه ، والصفحة نفسها.

³ المرجع نفسه ، ص124.

علمًا على الرثاء ، بعد أن وقفت في جلّ شعرها على رثاء أخيها صخر.¹

فأصبحت رمزا أدبيا يحمل في طياته الحزن والبكاء على الفقد ، وقد تم توظيف هذا الرّمز ليحمل دلالات أخرى كالدلالة السياسية مثلا " فالخنساء في رؤياهم ترمز للأمة الإسلامية التي تتكاتف عليها المحن ، وتتوالى الأحزان ، وتفقد أغلى زهراتها ."² وهناك الكثير من الرّموز الأدبية التي ارتبطت بالعنصر الأدبي غير الخنساء منها قيس وليلى وغيرها من الرّموز الأدبية .

5-2-2-1- الرّمز الأسطوري :

تعد الأسطورة ذلك العلم الذي يتعدى الواقع ، و من بين أكثر تعريفات الأسطورة عمومية وبساطة ، ما اختاره ' باورو' وهو أنّ " مفهوم الأسطورة يشمل كل ما ليس واقعا أي كل ما لا يصدقه العقل...فكلّ قصة تعتمد على أسس غير عقلية أو تبرر بمبررات غير عقلية لا يكون ثمة شك في أنها نتاج لخيال أسطوري ،"³ حيث يتم توظيف طاقاتها الخارقة في الأعمال الأدبية ، قد تكون للتشويق أو ليجعل المتلقي يبحث ليفك شفراتها . " فالأسطورة إذن ليست مجرد إطار بسيط تأتي أفكار الأديب الجاهزة لتملأه ، وإنما إذا وجدت أسطورة ما صدى خاصا في نفسية الأديب ، أو إذا وجدت بعض الومضات القائمة في لوعي الشاعر في بعض معطيات الأسطورة صورتها الرّمزية التي تضيئها وتنقلها إلى الشعور ، عندئذ يتم اعتماد الأسطورة ."⁴

فعلى كل من يوظّف الأسطورة وجب عليه استيعاب أبعادها الدلالية فلا يستطيع أحد آخر توظيفها دون أن يدرك مغزاها و معناها ، ومن بين الأساطير توجد أسطورة زرقاء

¹ المرجع السابق ، ص147.

² المرجع نفسه ، والصفحة نفسها.

³ المرجع نفسه ، ص175.

⁴ المرجع نفسه ، ص176.

اليمامة والتي ترمز إلى "القدرة على التنبؤ واكتشاف الخطر قبل وقوعه والتنبه إليه وتحمل نتيجة إهمال الآخرين وعدم إصغائهم إلى التحذير".¹

ومن الأساطير أيضا نجد أسطورة سيزيف وعشتار ، وتموز وغيرهم من الأساطير التي كان لها حيز أو جزء داخل الأعمال الأدبية من قبل أدباءنا وشعرائنا ، الذين كان لهم محاولة في " الالتحام بالتراث القومي والعالمي والاستمداد منه ، سواء بالإشارة إليه أو الاقتباس منه ، أو استغلال بعض اصطلاحاته أو نماذجه ، شريطة أن يتم ذلك بطريقة رمزية ، بأن يشف النموذج أو الواقعة التراثية المقتبسة عن مشاعر وأفكار ذاتية أو إنسانية عامة".²

مثل أسطورة سيزيف والتي تمثل ذلك الرجل الذي عوقب بدفع الصخرة إلى أعلى جبل لتعود وتسقط في الوادي ليعيد دفعها مرارًا وتكرارًا في محاولة عديمة الجدوى وكذا أسطورة عشتار " فعشتار أسطورة تعني آلهة الحب والجنس والإخصاب ، أمّا تموز تعني آلهة النباتات والماشية ، وكان يسمى أيضا الراعي ومن رموزه الثور".³

فالأسطورة في قالبها اللاواقعي والخيالي تحمل في طياتها تعبيرات ومعاني تدور في أعماق النفس اتجاه القوى الطبيعية وعكستها في قالب أدبي خرافي.

6-2-2-1- الرّمز الطبيعي :

لطالما كانت الطبيعة المصدر الأول الذي يستلهم منه الشاعر والأديب رموزا في أعماله الأدبية للتعبير عن ما يجول في خاطره من مشاعر وأحاسيس فيقوم باستحضار هذه الدلالات والرموز لتقوم بإيحاء معاني تختلج هذا الأديب بدلا منه ، "لأنّ الرّمز بديل

¹ المرجع السابق ، ص180.

² محمد فتوح أحمد ، الرّمز والرّمزية في الشعر المعاصر ، دار المعارف ، مصر ، (د.ط) ، 1977م ، ص321،322.

³ زيدون خلدون جميل ، القدس العربي ، أسطورة الآلهة تموز وعشتار الخالدة ، 12فيفري ، 2020 ، سا21:00

عن التعبير المباشر، فاستخدام الأشياء الطبيعية مثل الأرض والبحر و الشجر والطيور والنبات و الحيوان و ... لِمَا لها من أبعاد وإيحاءات رمزية لأنّ الطبيعة تستمد حيويتها وقيمتها من تعامل الإنسان معها.¹

هذا يعني أنّ الرّمز الطبيعي هو استحضار لعناصر الطبيعة المنطق على معانيها في مجتمع ما وتوظيفها في الأعمال الأدبية ، حيث تجسد ما يمرّ به الأديب أو الكاتب من ظروف ، وقد تنوعت الطبيعة إلى ثلاثة أنواع وهي الطبيعة الصامتة والطبيعة الحيّة والطبيعة الصناعية :

- الطبيعة الصامتة :

وتعني تلك المكونات الطبيعية الغير ناطقة ، مثل " الرّوض والشّجر والأزهار والورود والثمار والفصول والري والبطاح و التلول والجبال والأنهار والبحر والغمام والمزن والنّدى والسيول والبرد والتلج والبرق والرعد والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار... " ² فهي هكذا تعني عناصر الطبيعة التي تكون في حالتها الأصلية جامدة .

- الطبيعة الحيّة :

والتي تعني الطبيعة المتحركة التي تسعى وتدبّ على الأرض " وتعني الحيوانات والحشرات والطيور... " ³

تكون الطبيعة الحيّة بهذا تعني تلك المخلوقات والكائنات الحيّة المتحركة الغير ساكنة والتي تدبّ على الأرض .

¹ رسول البلاوي وحسين المهدي ، الرّموز الطبيعيّة ودلالاتها في شعر يحي السماوي ، إيران ، بوشهير ، مجلة اللغة العربيّة وآدابها ، ع3 ، 1416هـ ، ص187،188.

² عمر إبراهيم توفيق ، الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس موضوعاته وفنونه ، جامعة كركوك ، العراق ، ط منقحة ، 2011م ، ص214.

³ المرجع نفسه ، والصفحة نفسها.

- الطّبيعة الصناعية :

كل ما قام الإنسان بتشييده واختراعه وابتكاره في حياته وما صنعه من وسائل لتساعده على الرّاحة وتحميه للبقاء وتساعده في عيشه ومنها " القصور والأبنية والأحواض الصناعية والتماثيل والحمامات والأدوات مثل السيف والرمح (...) والطعام والشراب (...) والآلات مثل دواليب المياه ، والأساطيل والسفن (...) في حقبة كان الاهتمام بمظاهر الدنيا في غاية عظمتها ولاسيما القصور وما فيها من البرك و التماثيل والصور وما يحيط بها من التّرعّ والبساتين والأشجار والأنهار.¹

فما قام باختراعه الإنسان وصناعته هو نفسه مكونات الطّبيعة الصناعية كونها جزء لا يتجزأ من الحيز الطّبيعي.

وعليه فالطّبيعة وكل هذه الأنواع والمكونات التي كانت ولا تزال أرضا خصبة معطاء ، يستمد منها الفنان والشاعر والأديب دلالات ومعاني يستعين بها فيوظّفها في عمله ليجسد حالات يمرّ بها ، ويصف من خلالها جوانب ذاتية لتقوم هذه الرّموز كبديل له بالتعبير والإيحاء لما يمرّ به هذا الفنان أو الأديب أو الشاعر بطريقة غير مباشرة .

¹ المرجع السابق ، ص214.

2- ماهية الماء :

2-1- تعريف الماء لغة واصطلاحاً :

تضاربت آراء اللغويين في أصل لفظة ماء ، هل هي الأصل فيها همزة ؟ أم هي قلب لها محذوفة ؟ غير أنّها تصبّ في معنى واحد وهو الأصل :

ففي كتاب العين " الماء مدّته في الأصل زيادة وإنّما هي خلف من هاء محذوفة وبيان ذلك أنّه في التصغير موية وفي الجمع مياه .

ومن العرب من يقول : هذه ماءة كبني تميم يعنون الركية بمائها ، ومنهم من يؤنّثها فيقول : ماءة واحدة مقصورة ، ومنهم من يمدّها فيقول : ماء كثير على قياس شاة وشاء¹

أمّا في تعريفه في القاموس المحيط " الماء والماء والماءة ، وهمزة الماء منقلبة عن هاء ، وسمع اسقني ما ، بالقصر وج : أمواه ومياه . وماهة الركية تمّاه و تمّوه وتمّيه مَوْهاً ومِيهاً ومُووها ومَاهة ومِيهة فهي مِيهة ... مَاهة : كثر مائها² ، ومنه أصل الهمزة في كلمة ماء هي هاء .

كما جاء في لسان العرب " الماء والماء و الماءة معروف ، وتصغيره مويه وجمع الماء أمواه ومياه وحكى "ابن جني" في جمعه أمواه قال : أنشدني أبو علي 'بلدة قالصة أموائها' وأصل الماء ماه والواحدة مائة و مائة .

وفي حديث كان موسى عليه السلام يغتسل عند مويهة : هو تصغير ماء .

وقال "أبو المنصور" : أصل الماء ماه بوزن فاه .³

¹ الخليل ابن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين ، ج8 ، ص422.

² الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، ج4 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1999م ، ص30.

³ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، ج13 ، مادة (موه) ، ص543.

أمّا تعريفات الماء في الاصطلاح فنجدها في الكتب الفيزيائية والعلمية حيث أنّ "الماء هو الحالة السائلة لمركب الهيدروجين والأكسجين حيث يتكون من ذرتي هيدروجين وذرة واحدة من الأكسجين يحمل الصيغة الكيميائية والعامّة H_2O ويكون في صورته الطبيعيّة عذب المذاق نقياً مصاعاً ، لا طعم له ولا لون ولا رائحة".¹

وفي تعريف آخر للماء نجد مكوناته كما تبين ذكرها و حالاته الفيزيائية " يتألف جزيء الماء من ذرتي هيدروجين H وذرة أكسجين واحدة O صيغته الجزيئية H_2O ، وهو عديم الرائحة و اللون والطعم والصفة ويكون سائلاً عند درجة الحرارة بين 0 وال 100 مئوية أو غازي على شكل بخار عند درجة الغليان (100م) أو صلباً على شكل جليد أو ثلجاً عند درجة أقل من الصفر (درجة التجمد 0 م) الماء محلول مذيب لكثير من الأجسام الصلبة والسائلة والغازية ، وناقل للكهرباء كتلته الحجمية 1000كلغ/م³ غ/سم.²

بالإضافة إلى هذه التعريفات العلمية ، فإننا نجد تعريفاً آخر للماء ، والذي يعطي صفات أخرى له ، والذي نجد فيه أنّ "الماء : هو جوهر لطيف سيّال يتلون بلون إنائه فهو لا لون له"³

فالماء هو ذلك السائل البسيط المكون من تلك الجزيئات الثلاث يتميز بالشفافية والعدم الرائحة واللون والطعم يتحول بفعل تأثيرات خارجية إلى الحالة الجامدة (جليد) والسائلة (سائل) والغازية (بخار) .

¹ سويد وفاء ، التحليل الفيزيوكيميائي ، الحنفية (الوادي) وكذا مياه معدنية تجارية ومقارنة النتائج بالأنظمة العالمية ، مذكرة لنيل شهادة الماستر أكاديمي في الكيمياء ، جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي ، إشراف الأستاذ حوات عمار ، 2018/2017م ، ص3.

² بلعالم عبد اللطيف ، نزع أيونات الفلوريد من المياه الصالحة للشرب في منطقة ورقلة باستعمال الجير وكبريتات الألمنيوم ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الري ، جامعة قاصدي مرباح ورقلة ، إشراف الأستاذ باوية قيس ، 2011/2010م ، ص6.

³ عبد البر ابن محمد ابن محمد ابن محمود ابن الشحنة الحلبي ، الذخائر الأشرفية في ألغار الحنفية ، تح/ محمد حسن إسماعيل الشافعي ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 1287هـ ، ص8.

2-2- الماء في القرآن الكريم :

إنّ مجرد الحديث عن الماء في الشعر الإسلامي وخاصة في شعر صدر الإسلام يذكرنا بنزول القرآن الكريم ، وقد تجلّى في العديد من الآيات واكتسب قدسيته وعظمته من القرآن الكريم ، ومن أعظم الآيات التي تجسد قيمة الماء قوله تعالى: << وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ... >>¹

وجعل الماء جزء من الجنة التي يسعى إليها المؤمنون وهذا لقيمته وعظمته الكبيرة ، فوعد الله المتقين بالجنة التي تجري من تحتهم الأنهار ، فيها خالدين هذا وعدهم يوم القيامة وهذا في قوله تعالى :

<< مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ... >>²

وجاء الماء في القرآن بمعنى العذاب وجزاء أصحاب النار في قوله تعالى :

<< كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ >>³

فهنا نجد أنّ ماء الحميم متعلق بجهنّم للكافرين عكس ماء الجنة الماء العذب الفرات السائغ شرابه ، فقال تعالى : << وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا >>⁴

جاء الماء في القرآن الكريم بالعديد من المعاني المختلفة ، فجاء نعمة لأهل الجنة ونقمة على أهل النار ، وهذا راجع إلى قدسيته في الدين الحنيف ، قد يكون مصدر رزق وحياة للبشر وفي نفس الوقت مصدر شقائهم وهلاكهم ، وهذا كلّه يزيد من عظمته وقيمته وهذا ما نجده في هذه الآية :

¹ هود / 7.

² محمد / 15.

³ محمد / 15.

⁴ المرسلات / 27 .

فقال تعالى: << وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ >> ¹

وفي قوله تعالى: << أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ >> ²

وجاء الماء بمعنى الحياة فهو مصدرها وسبب كيانها فقال تعالى: << إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ... >> ³

"ضرب تعالى مثلا لزهرة الحياة وزينتها ، وسرعة انقضائها وزوالها ، بالنبات الذي أخرجته الله بما أنزل من السماء من ماء " ⁴ ، أي الماء أساس هذه الحياة ومصدر وجودها .

"فالماء العنصر الأصلي في خلق الكائنات الحيّة في الكون ، ومن بين هذه الكائنات الإنسان والذي خلق منه " ⁵ :

يقول تعالى: << وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ >> ⁶

هذا ما يدلّ على أنّ الماء مقدس لما حظيه من مكانة في ديننا ، فهو عَصَب الحياة كون كل الكائنات خَلَقها منه وتحتاج إليه ولو بجزء ضئيل ، فلا يمكن العيش بدونه .

¹ الأنبياء / 30 .

² الأنعام / 6 .

³ يونس / 24 .

⁴ الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، تفسير القرآن العظيم ، م7 ، تح/ مصطفى السيد محمد وآخرون ، مؤسسة قرطبة للطبع والنشر والتوزيع ، الجيزة ، ط1 ، 1421هـ / 2000م ، ص350 .

⁵ عزيز العريايوي ، رمزية الماء في التراث الشعري العربي ، دائرة الثقافة والإعلام ، الشارقة ، الإمارات ، 2015م ، ص48،49 .

⁶ النور / 45 .

3-2- حضور الماء في الشعر العربي القديم :

لقد ارتبط الشعر العربي القديم بالبيئة ، حيث كان للبيئة تأثير كبير على النتاج الأدبي وخاصة الشعر ، فقالوا أشعارا كثيرة وظّفوا فيها ألفاظ من الطبيعة وهذا دليل على تأثرهم وارتباطهم الكبير بها ، وهذا ما نجده في شعراء العصر الجاهلي وباقي العصور التي توالى بعده .

1-3-2- الماء في الشعر الجاهلي :

فقد كان الماء حاضراً من خلال شعراء هذا العصر ، الذين يسكنون في شبه الجزيرة العربية ، حيث " تشمل جزيرة العرب الجنوب الغربي لآسيا ، وقد سمّاها أهلها جزيرة لأنّ الماء يدور بها من ثلاث جهات في جنوبيها وغربيها وشرقيها ..."¹

وهذا يعني أن الماء جزء مهم في حياة أهل الجزيرة وله أثر كبير في حياتهم ، " وإذا كانت بلاد العرب تضمّ شعبا واحدا ، فإنّها ليست ذات طبيعة واحدة ، إذ أنّها تختلف اختلافاً عظيماً في كثير من الظواهر الطبيعيّة ... " ²

ونحن ما يهمنا من العناصر الطبيعيّة التي وظّفها العرب في أشعارهم هو الماء أو ما يدلّ عليه من مسمياته فيما نظموه .

قال "المنخل اليشكري" :

وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى الْفَتَا * ةِ الْخَدْرِ فِي يَوْمِ مَطِيرٍ ³**

وظّف الشاعر ما يدلّ على الماء وهي كلمة مطير وتعني نوع من الماء وهو (المطر)

¹ شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط11 ، (د.ت) ، ص17.

² عبد العظيم علي قناوي ، الوصف في الشعر العربي ، ج1 ، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى الباني وأولاده ، مصر ، (د.ط) ، 1949م ، ص1.

³ المرجع نفسه ، ص9.

وقال أعرابي :

أُكْرِرُ طَرْفِي نَحْوَ نَجْدٍ وَإِنِّي * * * إِلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يُدْرِكِ الطَّرْفُ أَنْظُرُ

حَنِينًا إِلَى أَرْضٍ كَأَنَّ تُرَابَهَا * * * إِذَا أَمْطَرَتْ عَوْدُ مِسْكِ وَعَنْبَرُ¹

الشاعر يتكلم عن " نجد " وهي قسم من أقسام شبه الجزيرة وأكثرها خصوبة ، وهو يصفها لنا حين المطر وهذا أيضًا دليل آخر للماء .

يُذكر أن العربي القديم معروف بترحاله الدائم بحثًا عن مواطن الماء والعشب ، فكان الماء ذو أهمية في حياته وبقائه واستمراره ، ومن بين الشعراء الذين استحضروا صورة الماء في أشعارهم " عبيد بن الأبرص " يقول :

عَيْنَاكَ مَعَهَا سَرُوبٌ * * * كَأَنَّ شَأْنَيْهِمَا شَغِيبُ

وَاهِيَةٌ أَوْ مَعِينٌ مَعْنَى * * * مِنْ هَضْبَةٍ دُونَهَا لَهُوبُ

أَوْ فَلَجٍ وَادٍ بَبْطُنِ أَرْضٍ * * * لِلْمَاءِ مِنْ تَحْتِهِ قَسِيبُ

أَوْ جَدْوَلٌ فِي ظِلَالِ نَخْلٍ * * * الْمَاءُ مِنْ تَحْتِهَا سَكُوبُ²

فهاهو الشاعر يصف لنا الماء وفي مدى أهميته في حياة الإنسان فهو عنصر مهم في الطبيعة فلولاها لما عاشت المخلوقات ولا أثمرت هذه الطبيعة .

إنّ "مناخ الجزيرة في جملته حار شديد الحرارة وتكثر في نجد رياح السموم التي تهب صيفا ، فتشوي الوجوه شيئا ، وألطف رياحها الرياح الشرقية (...) والأمطار عامة قليلة إلا في الجنوب حيث تهطل أمطار الرياح الموسمية في الصيف (...) وإلا في الشمال

¹ حنا الفاخوري ، الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1986م ، ص63،64.

² عزيز عرابوي ، رمزية الماء في التراث الشعري العربي ، ص57.

الغربي حيث تهطل أمطار الرياح الغربية شتاءً ، وكثيراً ما يتحول المطر إلى سيول جارفة في اليمن وشمالى الحجاز ، فقد وصف 'امرئ القيس' في معلقته سيلاً جارفاً.¹

يقول امرئ القيس :

مَكْرٌ مَفْرٍ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعَا *** كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عِلٍّ²

كما يذكر الماء بلفظه الصريح فيقول :

كَبِئْرِ الْمُقَانَاةِ الْبَيَاضِ بِصُفْرَةٍ *** عَذَاهَا نَمِيْرُ الْمَاءِ غَيْرُ الْمُحَلَّلِ³

وقال أيضا :

فَأَضْحَى يَسُوحُ الْمَاءَ حَوْلَ كَتْفَيْهِ *** يَكْبُ عَلَى الْأَدْفَانِ دَوْحُ الْكَنْهَبِلِ⁴

ويقول أيضا :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْحَى سُدُولَهُ *** عَلِيًّا بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي⁵

هنا لم يذكر الماء لكنّه ذكر ما يدلّ عليه وهو البحر فشبهه ظلام الليل بالبحر في أمواجه.

وقال أيضا :

وَوَادٍ كَجَوْفِ الْعَيْرِ قَفْرٌ قَطَعْتُهُ *** بِهِ الذَّنْبُ يَعْوِي كَالْخَلِيْعِ الْمُعِيلِ⁶

ذكر في هذا البيت الوادي الذي شبّهه بجوف العير الذي يجمع الماء فيه ، وهو مكان

¹ شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي ، ص21.

² الحسين بن أحمد الزوزني أبو عبد الله ، المعلقات السبع مع الحواشي المفيدة ، تح/ خير أبو الوفاء ، مكتبة البشرى ، كراتشي ، باكستان ، ط1 ، 1432هـ/2001م ، ص32.

³ المرجع نفسه ، والصفحة نفسها.

⁴ المرجع نفسه ، ص39.

⁵ المرجع نفسه ، ص28.

⁶ المرجع نفسه ، ص30.

للماء يصفه لنا بخلائه .

وفي بيت آخر نجد " امرئ القيس" يصف ديمة والتي هي لفظة من ألفاظ الماء المختلفة وتعني السحابة فيقول :

دَيْمَةٌ هَطْلَاءٌ فِيهَا وَطْفٌ *** طَبِقَ الْأَرْضِ تَحْرِيٌّ وَتَدْرُ¹

فالدَّيْمَةُ أو المطر دلالة على الماء وقال أيضا :

سَاعَةٌ تَمَّ انْتِحَاها وَابِلٌ *** سَاقِطُ الْأَكْنَافِ وَاهٍ مُنْهَمِرٌ²

وظَّف هنا دلالة أخرى للماء وهي وابل ، والوابل هو المطر الشديد ، ويذكر "الأعشى" في معلقته قائلا :

بَلْ هَلْ تَرَى عَارِضًا قَدْ بَثَّ أَرْمَقَهُ *** كَأَنَّما الْبَرْقُ فِي حَافَاتِهِ شَعَلٌ

لَهُ رَادِفٌ وَجَوْزٌ مُقَامِ عَمَلٍ *** مُنْطِقٌ بِسِجَالِ الْمَاءِ مُتَّصِلٌ³

العارض يعني به السحاب ، وأكمل وصفه للسحاب حيث يصف البرق الذي يشتعل منه ، وأنه يحمل الماء وليس سحاب عابر بدون ماء .

وقال أيضا :

حَتَّى تَحْمُلُ الْمَاءَ مِنْهُ تَكْلُفَةٌ *** رَوْضُ الْقَطَا فُكْتَيْبُ الْغَيْنَةِ السَّهْلُ⁴

وظَّف الشاعر " الأعشى" لفظ الماء بمسماه الصريح وهو الماء .

وقال النجاشي في بني العجلان :

¹ عبد العظيم علي القناوي ، الوصف في الشعر العربي ، ص258.

² المرجع نفسه ، والصفحة ونفسها.

³ المرجع نفسه ، ص260.

⁴ المرجع نفسه ، والصفحة ونفسها.

قَبِيلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ *** وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ

وَلَا يَرِدُونَ الْمَاءَ إِلَّا عَشِيَّةً *** إِذَا صَدَرَ الْوَارِدُ عَنْ كُلِّ مَنْهَلٍ¹

فقد أورد أيضا هذا الشاعر لفظة الماء في بيته هذا بلفظه الصريح والمباشر وقد سبق لفظة الماء بكلمة (يردون) أي فعل استقاء الماء .

ونجد أيضا لفظة الماء في قصيدة "عمر ابن كلثوم" ، وهو يتهدد "عمر ابن هند" ويتوعدّه قائلا :

وَأَنَا لَشَارِبُونَ الْمَاءَ صَفْوًا *** وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدْرًا وَطِينًا²

فالشاعر "عمر ابن كلثوم" هنا يذكر الماء ويذكر صفاته من صفاء وكدر وطين .

ومن كل هذه الأدلة يتبين لنا أن الشعر الجاهلي لم يخلو من توظيف عنصر الماء في طبيّاته ، بلفظه الصريح العام أو اللفظ الذي يدلّ عليه ، ومدى أهمية الماء في حياتهم واستمرارهم ، وسعيهم الدائم إلى أماكن تواجده .

2-3-2- الماء في شعر صدر الإسلام :

لقد تغيّرت ألفاظ الشعر في العصر الإسلامي وذلك بسبب الدين الجديد والدعوة المحمّدية والتي دعت إلى اختيار اللفظ المهذب الذي يخدم الدين الجديد غير أنّ عناصر الطبيعة لم تتغير فوظّفت في كلا العصرين وأهمها الماء ، فكان للماء حضور في قصائد الشعراء الإسلاميين ومن الشعراء الذين قاموا بتوظيف الماء في شعرهم نجد الشاعر "الحطيئة" ، "لقد تسيد الماء في أغلب شعر الحطيئة وذلك من خلال حديثه عن هذه

¹ أبو هلال العسكري ، ديوان المعاني ، ج 1 ، تح/ أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1414هـ/1993م ، ص171.

² سمدون حمادي وآخرون ، دور الأدب في الوعي القومي العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1982م ، ص84.

المادة الحيوية التي كانت مصدر الهيبة عن القبيلة ، وملجأ العيش والحياة والاستقرار...¹ في القديم دائما ما يرتبط بقاء القبيلة أو ترحالها بوفرة الماء في المنطقة فهو سبب انتقالهم ومصدر بقائهم .

" فالماء عند "الخطيئة" مصدر الحياة ومنبعها ، واستمرارها وعزتها في المجتمع العربي القديم ، وبدونه لا يمكن للحياة أن تستمر ، وأن يسعد الإنسان ويحافظ على نشاطه وقوته وبقائه ، إنّه رمز الخصوبة والنماء والاختضار ورمز البقاء والصمود والخلود²

فهو في شعره يصف لنا مياه البئر العميقة البعيدة عن الأيدي في صورة جميلة " هذه البئر في سكونها وفي برودة مائها ، قد تكون بعيدة عن سهام المفسدين الذين قد يكثرون صفو مائها و طراوته ويجلبون عليها الخراب والفساد والتلويث ، وبالتالي فهي آمنة على الماء وعلى النبات الذي يغطي الفضاء المجاور³ ، يقول الشاعر :

أَثَاثُ أَعَالِيهِ رَوَاءَ أُصُولِهِ *** سَقَاهُ بِمَاءِ الْبَيْرِ غَرَبٌ وَنَاصِحُ

إِذَا دُقَّتْ فَاهُ قُلَّتْ طَعْمُ مُدَامَةٍ *** بِنُطْفَةٍ جَوْنٍ سَالٍ مِنْهُ الْأَبَاطِحُ

غَرِيضٌ جَرَّتْ فِيهِ الصَّبَابِينُ مُنْحَنَى *** وَأَغْيَاضُ سِدْرِ بَيْنَهُنَّ مَرَاوِحُ⁴

فالشاعر "الخطيئة" هنا يصف ماء البئر وصفا جميلا في مذاقها وبرودتها ، فيصوّرها لنا بصورة رائعة .

إنّ الماء كان حاضرا عند الشعراء الإسلاميين مستحضرا في قصائدهم ، وهذا لقدسيته وقيّمته ومكانته الكبيرة في حياة الإنسان عامة ، وفي هذا البيت الجميل يقول " الخطيئة "

¹ عزيز عريايي ، رمزية الماء في التراث الشعري العربي ، ص75،76.

² المرجع نفسه ، ص76.

³ المرجع نفسه ، ص81،82.

⁴ مفيد محمد قميحة ، ديوان الخطيئة برواية وشرح ابن السكيت ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ط) ، (د.ت) ،

ص80،81.

يصف المكان الذي يقيم به :

مُقِيمٌ عَلَى بُنْيَانٍ يَمْنَعُ مَاءَهُ *** وَمَاءٌ وَسِيعٌ مَاءٌ عَطْشَانَ مُزْمِلٍ¹

كما أن لفظة الماء أو ما يدل عليها استخدمت في عدة مواضع ، وهذا ما نجده في ديوان "الإمام علي" كرم الله وجهه فيقول في فضل العلم :

فَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ أَصْلِهِمْ شَرَفٌ *** يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطَّيْنِ وَالْمَاءِ²

كغيره لم يخلو شعره من توظيف لفظ الماء ، ونجده أيضا يقول في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال:

كَأَنَّ أُمُورَ النَّاسِ بَعْدَكَ ضَمِنَتْ *** سَفِينَةٌ ، مَوْجٌ حِينٌ فِي الْبَحْرِ قَدْ سَمَّا³

لم يورد هنا لفظة الماء وإنما ذكر مفردة من مفرداتها الدالة عليها وهو الموج والبحر. وأيضا في الحث على العمل وطلب الرزق والمعاش ، يقول الإمام علي :

وَمَا طَلَبُ الْمَعِيشَةِ بِالتَّمَنِيِّ *** وَلَكِنْ أَلْقِي دُلُوكَ فِي الدَّلَائِ

تَجْنِكَ بِمِلْنِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا *** تَجْنِكَ بِجَمَاةٍ قَلِيلِ مَاءِ⁴

كذلك نجد ذكر الماء في بيت آخر للإمام علي ، والذي يقول فيه أيضا :

فَإِنَّ إِرَاقَةَ مَاءِ الْحَيَاةِ *** دُونَ إِرَاقَةِ مَاءِ الْمُحْيَا⁵

وهناك " النابغة الجعدي " الذي يقول موظفا لفظ الماء الذي منه خلق الإنسان ، يقول:

¹ عزيز عريابوي ، رمزية الماء في التراث الشعري ، ص83.

² الإمام علي ابن ابي طالب ، ديوان شعر إمام البلغاء ، مكتب الدراسات ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع ، عين مليلة ، الجزائر ، (د.ط) ، 2011م ، ص6.

³ المصدر نفسه ، ص8.

⁴ المصدر نفسه ، ص6.

⁵ المصدر نفسه ، ص51.

الْخَالِقُ الْبَارِيُّ الْمُصَوِّرُ فِي * الْأَرْحَامِ مَاءً حَتَّى يَصِيرَ دَمًا¹**

فهو يذكر لفظة الماء ، ومن خلالها يبين لنا عظمة الخالق سبحانه وتعالى في تصوير خلقه ، ويبين لنا ويذكرنا في أصل الإنسان ومن أي شيء كان قد خلقه سبحانه ، كما استعمل شعراء عصر صدر الإسلام لفظة الماء وما يدل عليها من ألفاظ في وصف معاركهم ، التي خاضوها ضد الكفار ، ويقول "ابن سلام": كعب شاعر مجيد ، قال يوم "أُحُدَّ" في كلمة :

فَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسَطُهُ * أَحَابِيشٌ مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمُقْتَعٌ²**

فهو يصف لنا غزوة أحد وفيها استعمل لفظة الموج ، ولفظة البحر ، وكلاهما يوحيان إلى الماء ، وقال أيضا :

فَرَاخُوا سِرَاعًا مُوجِفِينَ كَأَنَّهُمْ * جِهَامٌ رَاقَتْ مَاءَهُ الرِّيحُ مُفْلَعٌ³**

شبه ذهب العدو بماء السحاب الذي سرعان ما تخفيه الرياح ، وقد استعمل شعراء صدر الإسلام ألفاظا من الطبيعة في رثاءهم ، "...ومن ذلك قصيدة "كثير بن العريزة التميمي" يرثي بها من أصيبوا في معارك الطالبات وجوزجان في عهد عمر ابن الخطاب ، وفيها يقول:

سَقَى مُزْنَ السَّحَابِ إِذَا اسْتَهَلَّتْ * مَصَارِعُ فِتْيَةٍ بِالْجُوزْجَانِ⁴**

لقد استعمل الشاعر كلمة مزن السحاب ، وهي أيضا دلالة على الماء وخاصة عندما سبقها بالفعل سقى ، للتأكيد على وجود الماء والمطر .

¹ سمدون حمادي وآخرون ، دور الأدب في الوعي القومي والعربي ، ص118.

² شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي الحديث(العصر الإسلامي) ، دار المعارف ، مصر ، ط7 ، (د.ت) ، ص45.

³ المرجع نفسه ، والصفحة نفسها.

⁴ المرجع نفسه ، ص65.

3-3-2- الماء في الشعر الأموي :

لقد كان للماء دور بارز في استمرار الحياة في القديم ، ولأهميته في الحياة عموماً كان لابد له أن يجد لنفسه حيزاً في الشعر الأموي ، فنجد الشاعر " أعشى ربيعة " يصف لنا عظمة الماء وحمله للعرش الرباني يقول :

اللَّهُ قَبْلَهُمْ وَالْمَاءُ يَحْمِلُهُ *** حَتَّى قَضَى فِي الْأَمْرِ مُقْتَدِرُ

بَنَى السَّمَاءَ لَنَا الدُّنْيَا فَرَزَيْنَهَا *** فِيهَا النُّجُومُ وَفِيهَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

مِنْ دُونَ سِتِّ طَبَاقٍ وَهِيَ سَابِعَةٌ *** ذَاتُ الْبُرُوجِ وَمِنْهَا يَنْزِلُ الْمَطَرُ

في هذه الأبيات الشاعر يتفاعل مع عظمة الماء في حمله للعرش الإلهي ، وهذا يدل على تأثره بما قد قرأه من القرآن الكريم ، فتصوير الماء بهذه العظمة يعد الشيفرة السيميائية لخلجات نفس الشاعر الذي يشعر بأهمية الماء ودوره في الحياة البشرية.¹ كما استعمل " ذو الرمة " لفظة الماء حين هجا صاحبه ، فوصفه بالخبث حتى وإن كان منظره صافياً ، فقال :

أَلَمْ تَرَى أَنَّ الْمَاءَ يَخْبِثُ لِعَمِّهِ *** وَإِنْ كَانَ لَوْنُ الْمَاءِ صَافِيًا²

ونجد أيضاً الماء دلالة على الشباب والكبر فهاهو " القطامي " يذكر لفظة الماء في التشبيب ، فيقول :

فَهِنَّ يَنْبُذْنَ مِنْ قَوْلٍ يَضِيقُ بِهِ *** مَاعِ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْغِلَّةِ الصَّادِي³

نلاحظ أن الشاعر الأموي لم يستخدم لفظة الماء لوصف الطبيعة بل تعداه إلى أغراض

¹ ينظر : عزيز العرياي ، رمزية الماء في التراث الشعري العربي ، ص 87، 88.

² جورج زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، مصر ، (د.ط) ، 2012م ، ص 355.

³ المرجع نفسه ، ص 360.

أخرى ، فكذاك نجد "الفرزدق" أيضا يقول :

يَا بَشْرُ إِنَّكَ سَيْفُ اللَّهِ صَيْلَ بِهِ *** عَلَى الْعَدُوِّ وَعَيْثُ يُنْبِتُ الشَّجَرَ¹

فالشاعر هنا يذكر لفظ الغيث ، الذي يعني به صفة الجود والكرم للممدوح ، والغيث نوع من الماء ، وهو الذي يكون نافعا للأرض والزرع ، وهذا مدح لبشر بالذود عن الحمى من الأعداء .

وأیضا نجد "جميل بثينة" يستعمل في شعره ما يدل على الماء من ألفاظ ، حيث يصف الشوق والحنين ، فيقول :

هَاجَتْ فُؤَادُكَ لِلْحَبِيبَةِ دَارَ *** أَقْوَتِ وَعَيْرِ أَيَّهَا الْأَمْطَارُ

وَعَفَا الرَّبِيعُ رُسُومَهَا فَكَانَهَا *** لَمْ يُغْنِ رُبْعَهَا دِيَارُ

فَسَقَى دِيَارَكَ حَيْثُ كُنْتَ مِنْ نَدَى *** عَيْثُ أَحْبَشُ وَدِيمَةُ مِذْرَارُ²

وفي موضع آخر يقول :

رِدِ الْمَاءِ مَا جَاءَتْ بِصَفْوِ ذَنَائِبُهُ *** وَدَعَهُ إِذَا فِينَصَتْ بِطَرْقِ مَشَارِبُهُ³

ونجد أيضا استعمال لفظة الوادي ، مثل الشاعر "مجنون ليلي" كان " بموضع يسمى الوادين ، وكان يجلس بينهما ويخلو في بيته فخرج يوما يريد هما ، فلما صار قريبا من الوادين أنشد يقول :

أَلَا لَا أَرَى وَادِي الْمِيَاهِ يَتَيْبُ *** وَلَا النَّفْسُ عَنْ وَادِي الْمِيَاهِ تَطِيبُ

¹ شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي الحديث ، العصر الإسلامي ، ج2 ، ص271.

² علي غانم فلحي الفنداوي ، مفردات الماء في الشعر العباسي (200هـ/350هـ) ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها ، جامعة البصرة ، إشراف الدكتور نهلة محمد حسن ، 1434هـ/2013م ، ص13.

³ شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي الحديث (العصر الإسلامي) ، ص13.

أَحِبُّ هُبُوطَ الْوَادِيَيْنِ وَإِنِّي *** لَمْشْتَهْرٌ بِالْوَادِيَيْنِ غَرِيبٌ¹

4-3-2- الماء في الشعر العباسي :

لقد عرف العصر العباسي ازدهارا في شتى المجالات ، وذلك بسبب الاندماج بين الشعوب مما أدى إلى تنوع الثقافات ، وكان هذا العصر من أجمل العصور التي عرفتھا أمّتنا ، وقد كان للبيئة دور كبير في التأثير على الشعراء العباسيين ، فكتبوا عنها أشعارا تغنّوا فيها بجمالها ، ومن عناصر الطبيعة التي وصفوها وذكرها ما يدلّ عليها نجد عنصر الماء ، ونجد الشاعر "بشار ابن برد" استعمل الماء في التشييب والغزل حتى يعطيه دلالات متعددة ، فتارة يجعله رمزا للعطاء والحب والمنح والعشق والرغبة ، وتارة يجعل منه رمزا للجفاء والبعد والشقاق والفرق ، يقول في الغزل يصف جارةً كانت تجاورهم فأعجب بها :

جَاوَرْتَنَا كَمَا حِينَا فَلَمَّا *** فَارَقْتُ لَمْ يَكُنْ لِحِرَانَ مَاءً²

يربط الشاعر هنا حضور المرأة الحبيبة بحضور الماء ووجوده ، وغيابها وفراقها يحيل مباشرة إلى الجفاف وشح الماء ، وهذا دليل على قيمة الماء عنده ، فلما غابت جارتهم فكأن الماء غاب عنه .

ويقول في جارية سوداء كانت له :

وَعَادَةُ كَانَتْ سَوْدَاءَ بَرَّاقَةً *** كَالْمَاءِ فِي طَيْبٍ وَفِي لَبْنٍ³

ويقول في سعدى بعد زيارته إياها ومجلس لهوها :

¹ قيس ابن الملوح ، ديوان قيس ابن الملوح (مجنون ليلي) ، رواية أبي بكر الوابي ، دراسة وتعليق يسرى عبد الغني ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1420هـ/1999م ، ص40.

² عزيز العرابوي ، رمزية الماء في التراث الشعري العربي ، ص94.

³ شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي الحديث (العصر العباسي الأول) ، دار المعارف ، مصر ، ط16 ، (د.ت) ، ص206.

وَعَدْتَنِي ثُمَّ لَمْ تُؤْفِي بِمَوْعِدَتِي *** فَكُنْتُ كَالْمُزْنِ لَمْ يُمْطِرْ وَقَدْ رَعَدَا¹

يستحضر الشاعر هنا صورة السحاب الأسود المحمل بالمطر ، الذي يوحى بتساقطه لكنّه في النهاية لا يمطر بل يغادر السماء ، وهذا تشبيه لمن أخلف وعده له ، فكأنّه سحاب يوعد بالمطر فيستبشر الناس له ، لكنّه يخلف وعده ولا يسقيهم الماء ، ونجده أيضا استعمل ما يدلّ على الماء ومكانته في المدح ، ومن ذلك حين مدح بشار "عقبة ابن سلم" في قوله :

أَرْيَحِي لَهَيْدُ تُمْطِرُ النِّي *** لَ وَأُخْرِي سُمِّ عَلَى الْأَعْدَاءِ²

ففي هذا المدح شبه يد "عقبة بن سلم" باليد التي تمطر على نهر النيل وهذا دلالة على المنح والعطاء .

وفي غرض الفخر والحماسة ، يقول :

عَدُونَا لَهُ وَالشَّمْسُ فِي خِدْرَامِهَا *** تُطَالِعُنَا وَالظَّلُّ لَمْ يَجْرِ ذَائِبُهُ³

ويقول في مدح روح " ابن حاتم " في كرمه وعطائه الذي لا ينتهي تجاهه ، فيصفه بالفياض الذي يفيض كرما وسخاءً فيقول :

وَلَا حَتَّ وَمَاءُ الْأَزْرَقَيْنِ عَشِيَّةً *** أَنَا قِيعَ تَغْفُوها نُسُورٌ وَأَدُوبُ

صَفَتْ لِي يَدُ الْفَيَاضِ رُوحِ ابْنِ حَاتِمٍ *** فَتِلْكَ يَدُ كَالْمَاءِ تَصْفُو وَتَعْدُبُ⁴

يرسم هنا صورة من صور الماء ، إذ وصفه في صفائه وعضوبته .

¹ محمد بدر الدين العلوي ، ديوان شعر بشار بن برد ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص78.

² جمال نجم العبيدي ، التجديد في شعر بشار ، مجلة كلية التربية الأساسية ، الجامعة المستنصرية ، كلية التربية الأساسية ، ع66 ، 2010م ، ص49.

³ المرجع نفسه ، ص50.

⁴ عزيز العريايوي ، رمزية الماء في التراث الشعري العربي ، ص105.

كما نجد "ابن الرومي" يقول :

وَمَاءٌ حَلَّتْ عَنْ حَرِّ صَفْحَتِهِ الْقَدَى *** مِنْ الرِّيحِ مِعْطَارُ الْأَصَائِلِ وَالْبُحْرِ

بِهِ عِبْقٌ مِمَّا تُسْحَبُ فَوْقَهُ *** نَسِيمٌ الصَّبَا تَجْرِي عَلَى الرُّوضِ وَالزَّهْرِ¹

ويقول "البحثري" في وصف بركة وصفاء مياهها التي تتجمع فيها بسرعة ، ووصف منظر مياهها ، فقال :

يَا مَنْ رَأَى الْبِرْكَةَ الْحَسَنَاءَ رُؤْيُهَا *** وَالْإِنْسَاتُ إِذَا لَاحَتْ مَعَانِيهَا

تَنْصَبُ فِيهَا وَفُودُ الْمَاءِ مُعْجَلَةٌ *** كَالْخَيْلِ خَارِجَةٌ مِنْ حَبْلِ مُجْرِيهَا

كَأَنَّهَا الْفِظَّةُ الْبَيْضَاءُ سَائِلَةٌ *** مِنَ السَّبَائِكِ تَجْرِي فِي مَجَارِيهَا

فَرَوْنُقُ الشَّمْسِ أَحْيَانًا يُضَاحِكُهَا *** وَرَيْقُ الْعَيْثِ أَحْيَانًا يُبَاكِهَا²

فقد بيّن لنا "البحثري" جمال البركة التي رآها وحسن منظرها ، وهذا يدلّ على جمال الطبيعة في العصر العباسي وفي وصفه لها بيّن وجود الماء بلفظه الصريح وما يدلّ عليه من لفظ معا.

ويقول "ابن المعتز" :

وَأَنْهَارُ مَاءٍ كَالسَّلَاسِلِ فُجِّرَتْ *** لِتُرْضَعَ أَوْلَادَ الرِّيَاحِينَ وَالزَّهْرِ³

يصف لنا الشاعر أيضا جمال الأنهار ومياهها في هذا العصر ، كما أنّه لا يذكر لنا لفظة الماء في وصف الطبيعة فقط ، بل وظّفها في أغراض أخرى ، منها ما قد استعملها

¹ بهاء الدين المنشي الأربلي ، التذكرة الفخرية ، تح/ الأستاذ الدكتور حاتم صالح الضامن ، دار البشائر للطباعة والتوزيع ، دمشق ، سوريا ، ط1 ، 1425هـ/2004م ، ص294.

² شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي الحديث (العصر العباسي الثاني) ، دار المعارف ، مصر ، ط2 ، (د.ت) ، ص295،296.

³ المرجع نفسه ، ص337.

في غرض المدح ، حيث مدح شخصيات من هذه الشخصيات الخليفة المعتضد ، حيث يقول ابن المعتز في مدحه للخليفة "المعتضد" :

يَصُوغُ عَلَيْهَا الْمَاءُ شُبَاكَ فِضَّةٍ *** لَهُ حُلُقٌ بَيْضٌ تَحُلُّ وَتُعَقِّدُ¹

ونجد شاعرا آخر من العصر العباسي يذكر في شعره ما يدل على وجود الماء وهو الشاعر " كشاجم " ، فيقول :

إِذَا اسْتَمَدَّ قُوقِ السَّمَاءِ *** بِهَا فَأَمَدَّتْهُ أَمْطَارَهَا

وَأَقْبَلَ يَنْظِمُ أَنْجَادَهَا *** بِفَيْضِ الْمِيَاهِ وَأَغْوَارَهَا²

في هذا البيت الذي يصف فيه الشاعر نهر قويق متأثرا به تأثرا كبيرا ، ويقول عنه أيضا في بيت آخر :

لِلنَّهْرِ نَهْرٌ قُوقِ *** عِنْدِي يَدٌ لَيْسَ تَجِدُ³

وكذلك نجد الشاعر " أبو تمام " يصف لنا ديمة ماطرة ، وكيف يستغيث بها التراب لتسقيه ، فيقول :

دِيمَةٌ سَمَحَةُ الْقِيَادِ سَكُوبُ *** مُسْتَعِيثٌ بِهَا الثَّرَى الْمَرْكُوبُ⁴

5-3-2- الماء في الشعر الأندلسي :

إذا ذكرنا الأندلس فإننا نذكر جنة الله في أرضه ، فقد تميّزت هذه الأرض بجمالها الطبيعي الذي أبدع فيه ربّ الكون ، وأعطاهها أجمل حلّة بأجمل الألوان ، فسحرت عيون

¹ جورجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ص564.

² زينب عبد الكريم حمزة ، وصف الطبيعة في الشعر العباسي لوحات كشاجم أنموذج ، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية ، جامعة بابل ، ع35 ، 2017م ، ص501.

³ المرجع نفسه ، والصفحة نفسها.

⁴ بهاء الدين المنشى الأرييلي ، التذكرة الفخرية ، ص291.

الناظرين وعقولهم بل حتى قلوبهم ، ليهبو لها كل أحاسيسهم ومشاعرهم وما يختلج صدورهم ، وقاموا يرسمون بأشعارهم أجمل لوحات فنية شعرية عن طبيعة الأندلس ، فكما سالت مياهها وسطعت في البصر بصفائها سالت قرائح الشعراء فيها ، واستخدموا في أشعارهم الماء ومفرداته في العديد من الأغراض المختلفة ، ولنا في ما سنعرضه بعض الأدلة التي تبين لنا هذا .

ف نجد " ابن سفر المريني " يقول في هذه الأبيات واصفا جمال طبيعة الأندلس ، موظفا مفردات الماء ، يقول :

وَكَيْفَ لَا يُبْهِجُ الْأَبْصَارَ رُؤْيُهَا *** وَكُلَّ رَوْضٍ بِهَا فِي الْوَشْيِ صَنْعَاءُ

أَنْهَارَهَا فِضَّةً وَالْمِسْكَ تُرْبُتُهَا *** وَالخَزْرُ رَوْضَتُهَا وَالْدَّرُ حَصْبَاءُ¹

ويقول " ابن اللبانة " يصف جمال البلد الذي سحره ، فشبهه أنهاره الجارية بالخمير الذي يسيل في الكأس ليملأها ، وشبهه ساحات الديار بالكأس التي تسقى فيها المدامة لتملأها ، فيقول :

بَلَدٌ أَجَارَتْهُ الْحَمَامَةُ طَوْقَهَا *** وَكَسَاهُ حُلَّةَ رِيثِهِ الطَّائِفُوسُ

فَكَأَنَّهَا الْأَنْهَارُ فِيهِ مَدَامَةٌ *** وَكَأَنَّ سَاحَاتِ الدِّيَارِ كُأُوسُ²

ويقول " أبو الحسن بن نزار " عن وادي الآشات وهي مدينة جلييلة ، قد أهدقت بها البساتين والأنهار :

وَادِي الْآشَاتِ يَهِيْجُ وَجُدِي كَلْمًا *** أَدْكِرَتْ مَا أَفْضَتْ بِكَ النِّعْمَاءُ

لِللَّهِ دَرْكٌ وَالْهَجِيرُ مُسَلِّطٌ *** قَدْ بَرَدَتْ لَفْحَاتُهُ إِلَّا نِدَاءُ

¹ محمد كرد علي ، غابر الأندلس وحاضرها ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، ط1 ، 1431هـ / 1923م ، ص 26.

² شكيب أرسلان ، الحلال السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، ج1 ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، ط1 ، 1355هـ/1936م ، ص209.

وَالشَّمْسُ تَرغَبُ بِأَنَّ تَفُوزَ بِلَحْظَةِ *** مِنْهُ فَتَطْرَفُ طَرْفَهَا الْأَفْيَاءُ

وَالنَّهْرُ يَبْسُمُ بِالْحُبَابِ كَأَنَّهُ *** سَلَخَ نَضْتَهُ حَيَّةً رَفْشَاءُ¹

وهناك وصف للبحر ومن الشعراء الذين وصفوه نجد الشاعر " ابن حمديس " يصف البحر في هذا البيت فيقول :

أَرَاكَ رَكِبْتَ فِالْأَهْوَالِ بَحْرًا *** عَظِيمًا لَيْسَ يُؤْمَنُ مِنْ خُطُوبِهِ

تَسِيرُ فُلُكُهُ شَرْقًا وَعَرَبًا *** وَتُدْفَعُ مِنْ صِبَاهِ إِلَى جَنُوبِهِ

وَأَصْعَبُ مِنْ رُكُوبِ الْبَحْرِ عِنْدِي *** أُمُورٌ أَلْجَأَتْكَ إِلَى رُكُوبِهِ²

ويقول في وصف ساقية :

يَا حُسْنَ سَاقِيَةٍ تُمَدُّ أُنَامِلًا *** بَعْرُوسٍ رَاحَ فِيهِ عُقُودُ حُبَابِ

تَسْقِيكَ شَمْسُ سَلَافَةٍ عِنَبِيَّةٍ *** طَلَعَتْ عَلَى فُوكِ مِنَ الْعِنَابِ³

ويقول في وصف نهر :

وَلَا يَسُّ نَقْبُ الْأَعْرَاضِ جَوْهَرُهُ *** لَهُ أَنْسِيَابُ حُبَابِ رَفْشُهُ الْحَبُّبُ

إِذَا الصِّبَا زَلَقَتْ فِيهِ سَنَابِكَهَا *** حَسِبْتَهُ مُنْصِلًا فِي مَتْنِهِ شَطْبُ

وَرَدْتُهُ وَنُجُومُ اللَّيْلِ مَائِلَةٌ *** كَمَا تُدْخِرُ دُرَّ مَائِهِ نَقْبُ

وَمَغْرِبُ طَعْنَتُهُ غَيْرُ نَابِيَةٍ *** أَسِنَّةٌ هِيَ إِنْ حَقَّقْتَهَا شُهْبُ

¹ المرجع السابق ، ص189.

² ابن حمديس ، ديوان ابن حمديس ، رفع عبد الرحمان النجدي ، تح/ إحسان عباس ، دار الصادر ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص8.

³ المصدر نفسه ، ص21.

وَمَشْرِقُ كَيْمِيَاءِ الشَّمْسِ فِي يَدِهِ *** فَفِضَّةُ الْمَاءِ مِنْ إِقَائِهَا ذَهَبٌ¹

بصف الشاعر في هذه الأبيات جريان النهر وانسيابه ، ويصور منظر الماء والحباب يتصاعد منه ، ويشبه لون ماءه بالفضة البراقة ...

وهذا الشاعر " ابن صارة " يصف لنا نزول المطر ، حيث عندما اهتزت الأرض وربت عند نزول المطر ، قال :

فَإِذَا شَكَأَ فَالْبَرْقُ قَالِبٌ خَافِقٌ *** فَإِذَا بَكَى فِدْمُوعُهُ الْأَمْطَارُ²

وفي وصف النهر ، يقول " الإشبيلي " :

النَّهْرُ مُنْسَابٌ سَرَتْ خُلُجَانُهُ *** فَالرَّوْضِ بَيْنَ أَزْهَرِ الْكَيْتَمَانِ³

ومن هذا لم يخلُ العصر الأندلسي من توظيف الماء في أشعاره ، مثله مثل ما سبقه من العصور القديمة ، بل وكان أكثرها توظيفا لهذا العنصر ، لازدهارها الكبير وثنائها الطبيعي وكون الماء مركز لدائرة هذه الطبيعة والحياة والوجود ، فلا وجود إلا به ، وبانعدامه تنعدم الحياة ، فمنه خلق الله كل شيء حيا ، ولعظمته لا بد له من أخذ مكان داخل حيِّز كل عصر من العصور سواء قديما أو حديثا .

¹ المصدر السابق ، ص25.

² أحمد ابن محمد المقرئ التلمساني ، نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، م4 ، تح/ إحسان عباس ، دار الصادر ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 1388هـ/1968م ، ص5.

³ محمد سعيد الدغلي ، الحياة الاجتماعية في الأندلس ، دار أسامة ، (د.ب) ، (د.ط) ، 1984م ، ص52.

الفصل الثاني

مسميات الماء وأبعاده الدلالية في ديوان "ابن خفاجة" (باب الوصف) .

- مسميات الماء وأبعاده الدلالية في ديوان "ابن خفاجة" (باب الوصف) .

1- المفردات والألفاظ الدالة على الماء :

1-1- مسميات الماء

1-2- مسميات المطر

1-3- مسميات السحاب

1-4- مسميات البحار والأنهار والجداول والسيول

1-5- مسميات الثلجيات

1-6- مسميات الآبار والبرك

1-7- إحصاء مفردات الماء في ديوان ابن خفاجة (باب الوصف)

2- أبعاد الماء الدلالية في شعر ابن خفاجة :

2-1- البعد السياسي

2-2- البعد النفسي

2-3- البعد الاجتماعي

تمهيد :

من غير الممكن لأيّ شخص أن ينكر تأثير الطبيعة على النفس البشرية وعلى جميع الكائنات الحيّة ، فهي مصدر إلهام وتأثير على النفوس عامّة وخاصة الشعراء ، الذين جعلوا منها نبضاً لأشعارهم ، فكان لها جزء خاص لها في شعرهم وهو ما عرف "بشعر الطبيعة " ، حيث تغنّى الشعراء فيه بجميع عناصرها ، راسمين بها وعنّها لوحات فنية شعرية ، واصفينها في أحسن الصور ، وبكل مكوناتها من حيوانات ونباتات وجبال وسهول ووديان ومياهها بشتى أشكالها ، هذه الأخيرة وبحكم أنّ العالم يتكون من أجزاء مهمة وأصلية فيه وهي الماء والتراب والهواء ، فهي جزء مهم فيها ، وكون الماء مركز دراستنا فهو أحد أهم العناصر التي تتشكل عليها الطبيعة ، والتي تخلق منها جمالها ، ولكونه عنصر أصيل فيها كان لابد على الشعراء الإشادة به والتعبير عنه وبه ، وتخصيص جزء كبير له في شعرهم.

لقد تعدّدت مفردات ومسميات الماء واختلفت معانيه ودلالاته لدى الشاعر الواحد ، وهذا ما سنراه ونعرفه من خلال دراستنا لشعر "ابن خفّاجة" من جانب المفردات التي وظّفها فيه ، والأبعاد الدلالية التي تحملها .

1- المفردات والألفاظ الدالة على الماء في ديوان "ابن خفاجة" (باب الوصف):

1-1- مسميات الماء :

- الماء : هو السائل الذي منه نحيا وهو مصدر الحياة على الأرض ، ولقد تكرر في باب الوصف من ديوان ابن خفاجة في ثلاثة وأربعين مرة حيث نجده قد وظّفه مثلا في هذين البيتين الذين يصف فيهما أرض الأندلس وطبيعتها في قوله :

يَا أَهْلَ أَنْدَلُسِ لِّلّهِ دَرْكُمُ * * * مَاءٌ وَظِلٌّ وَأَنْهَارٌ وَأَشْجَارٌ¹

وَالرَّوْضُ وَجَهٌ أَزْهَرُ وَالظِّلُّ فَرْعٌ * * * أَسْوَدُ وَالْمَاءُ تُغَرُّ أَشْنَبُ²

- الثماد : جاء في لسان العرب "التمد و التمد :الماء القليل الذي لا مادّ له ، وقيل هو القليل يبقى في الجلد ، وقيل : هو الذي يظهر في الشتاء ويذهب في الصيف (...). وقيل: التّماد الحُفَرُ يكون فيها ماء قليل³ ، أي هو تجمعات الماء في برك صغيرة ، تتجمّع لمُدّة معينة ثم تذهب مياهها مع مرور الوقت و تأثير الحرارة ، وقد تكرر في باب الوصف مرّة واحدة ، نجده في قوله :

وَلَمَّا تَفَرَّى مِنْ دُجَى اللَّيْلِ طَحَلِبُ * * * وَأَعْرَضَ مِنْ مَاءِ الصَّبَاحِ ثِمَادُ⁴

- المورد : " والورد : النصيب من الماء ، وأورده الماء : جعله يَرِدُهُ. والموردة : مأتاة الماء ".⁵ ، أيضا يعني مكان الماء ، الذي يلجأ إليه الناس للشرب وأخذ ما يحتاجونه منه ، سواء لهم أو لحيواناتهم ، قصد الارتواء و دفع العطش ، تكررت مفردة المورد في ديوان ابن خفاجة في باب الوصف مرّة واحدة وذلك في هذا البيت :

¹ ابن خفاجة ، الديوان ، شرح يوسف شكري فريحات ، دار الجبل ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص94.

² المصدر نفسه ، ص44.

³ أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م5 ، ص105.

⁴ ابن خفاجة ، الديوان ، ص65.

⁵ أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م3 ، ص457.

أَقَامَ بِهَا مَا بَيْنَ ظِلِّ وَمَوْرِدٍ * مَرَادٌ بِبَطْنِ الْوَادِيَيْنِ خَصِيبٌ¹**

- الأحساء : "واحتسى حسيًا : إحتقره ، وقيل: الاحتساء نبثُ التراب لخروج الماء . قال الأزهري : وسمعت غير واحدٍ من بني تميم يقول احتسينا حسيًا أي أنبطننا ماء حسي. والحسي الماء القليل .

والأحساء جمع حسي : السهل من الأرض يستتقع فيه الماء " 2 ، ولفظة الحسي قد تعني الماء القليل الذي يغترف منه النَّاسُ للشرب ، ويكون ماءه عذب المشرب ، ذكره مرّة واحدة في باب الوصف في قوله :

فَأَسَلْتُ أَحْسَاءَ الدُّمُوعِ عَلامَةً ؛ * وَلَوَيْتُ أَحْنَاءَ الضُّلُوعِ تَأَلُّمًا³**

- الحباب : "وَحَبَبُ الْمَاءِ وَحُبُّهُ ، وَحَبَابُهُ ، بِالْفَتْحِ ، طَرَائِقُهُ ؛ وَقِيلَ : حَبَابُهُ نَفَاخَاتُهُ وَفَقَائِعُهُ ، الَّتِي تَطْفُو ، كَأَنَّهَا الْقَوَارِيرُ ، وَهِيَ الْيَعَالِيلُ ؛ وَقِيلَ : حَبَابُ الْمَاءِ مَعْظَمُهُ . " ابن الأثير " : الْحَبَابُ ، بِالْفَتْحِ ، الطَّلُّ الَّذِي يَصْبِحُ عَلَى الْنبَاتِ . " 4 والغالب فيه أنه الفقاعات التي تطفو في الماء عند تحريكه أو مزجه بسائل آخر ، والحباب عادة ما يكثر في السيول الجارية ، جاء ذكر لفظ الحباب في هذا الباب من الديوان باب الوصف ثلاثة عشر من مرّات ، حيث نجده مثلًا في قوله :

وَرَكِبْتُ دَجَلَتَهُ يُضَاحِكُنِي بِهَا * فَرَحًا حَبِيبٌ شَاقِنِي وَحُبَابٌ⁵**

- المزاد : وهو ما يحمله الانسان معه ، حيث كان يُحْمَلُ فِي الْقَدِيمِ فِي مَحْمَلٍ مِنْ جِلْدٍ ، قَصْدُ الْاِسْتِزَادَةِ مِنْهُ وَقَدْ الْعَطَشُ وَالْحَاجَةُ إِلَيْهِ ، "والجمع المزاد والمزائد.

¹ ابن خفاجة ، الديوان ، ص50.

² أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م14 ، ص177.

³ ابن خفاجة ، الديوان ، ص148.

⁴ أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م1 ، ص294،495.

⁵ ابن خفاجة ، الديوان ، ص42.

ابن سيده : والمزادة التي يحمل فيها الماء وهي ما فُئِمَ بجلد ثالث بين الجليدين ليتسع ، سميت بذلك لمكان الزيادة ¹ ، تم ذكر كلمة مزاد مرّة واحدة في هذا الباب حيث وظّف هذه اللفظة في قوله :

سَحِيقٌ وَلَا غَيْرُ الرِّيحِ رَكَائِبٌ *** هُنَاكَ وَلَا غَيْرُ الغَمَامِ مَزَادٌ ²

- قرار : (والقرار والقرارة) ، بفتحهما (ما قرّ فيه) الماء . والقرار ، والقرارة : المطمئن في الأرض والمستقرّ منها ، وقال أبو حنيفة : القرارة : كلّ مطمئنّ اندفع إليه الماء فاستقرّ فيه . قال : هي من مكارم الأرض إذا كانت سهولة ³ ، إذ أنّ الماء دائماً ما يتّجه في الأرض إلى الأماكن المنبسطة ، هذه الأراضي تكون غنية بالمياه والاختضار ، فهي أرض طيبة لساكنيها ، توفر لهم الرزق والطعام والماء .

" والقرور الماء البارد يغتسل به واقتترت بالقرور : اغتسلت به ، وقرّ عليه الماء يقرّه : صبّه ، والقرّ : مصدر قرّ عليه دلو ماء يقرّها قرّا ، وقررت على رأسه دلوا من ماء بارد أي صببته ⁴ ، تعني أيضا سكب الماء وصبّه ، سواء بالدلو أو باليدين ، جاء ذكره مرّة واحدة في قوله :

مُتَقَسِّمُ الأَلْحَاطِ بَيْنَ مَحَاسِنِ *** مِنْ رِدْفِ رَابِيَةٍ وَخَصْرِ قَرَارٍ ⁵

2-1- مسميات المطر :

توجد العديد من المفردات التي تحمل معناه وقد تتوّع ذكرها في الديوان ، ومن المسميات التي عثرنا عليها :

¹ أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م3 ، ص199.

² ابن خفاجة ، الديوان ، ص64.

³ محمد مرتضى الحسين الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، ج11 ، تح/ الدكتور حسين نصّار ، مطبعة حكومة الكويت ، (د.ط) ، 1394هـ/1974م ، ص392.

⁴ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م5 ، ص84.

⁵ ابن خفاجة ، الديوان ، ص93.

- المطر : تلك القطرات التي تسقط من السحاب بعد أن كانت بخار في الهواء ، ثم تحولت إلى طبيعتها السائلة بتأثير قوى الطبيعة ، وقد كان حضور هذا اللفظ مرتين حيث يذكر اللفظ في قوله :

تَقْبَلُ الْمُهْرُ مِنْ أَخِي ثِقَةً *** أَرْسَلَ رِيحًا بِهِ إِلَى مَطَرٍ¹

- الغيث : هو لفظ " المطر والكلأ ، وقيل : الأصل المطر ثم سمي ما ينبت به غيثا وغات الغيث الأرض أصابها ، ويقال غاثهم الله ، وأصابهم غيث وغات الله البلاد يغيثها غيثاً إذا أنزل بها الغيث"² ، فيطلق على المطر الذي ينزل على الأرض الجرداء العطشى ، ليكون خيرا عليها في إنبات الزرع والعشب وإحياءها وإحياء الكائنات فيها ، وكأته ينجد الأرض والكائنات من الموت والجفاف بعد القحط الذي أصابهم ، فتكررت كلمة الغيث في باب الوصف مرتين ، من هذا قوله :

كَرُمُوا فَلَا غَيْثُ السَّمَاحَةِ مُخْلِفٌ *** يَوْمًا وَلَا بَرْقُ اللَّطَافَةِ خُلْبٌ³

- الطَّل : ويعني به " المطر الصغار القطر الدائم ، وهو أرسخ المطر ندَى ، ابن سيده : الطَّل أخف المطر وأضعفه ثم الرذاذ ثم البغش ، وقيل : هو الندى ، وقيل : فوق الندى ودون المطر ، وجمعه طلال"⁴ ، على العموم هو نوع من المطر ، وإنما يتميز ببعض الصفات التي ينفرد بها ، كأن يكون قطره صغيرا جدا ، ويطول وقت نزوله ، فلا يغادر الأرض بسرعة ، جاء استخدامها في باب الوصف خمسة مرات منها في قوله :

فَتَكَادُ رِيْقَةً طَلُّهَا أَنْ تُحْتَسَى *** رَشْفًا وَمَبْسِمٌ بَرَقِهَا أَنْ يُلْتَمَا⁵

¹ المصدر السابق ، ص82.

² أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م2 ، ص175.

³ ابن خفاجة ، الديوان ، ص 45.

⁴ أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م11 ، ص450.

⁵ ابن خفاجة ، الديوان ، ص147.

وفي قوله أيضا :

وَضَمَّحَ رَدْعُ الشَّمْسِ نَحْرَ حَدِيقَةٍ *** عَلَيْهِ مِنَ الظَّلِّ السَّقِيظِ جُمَانُ¹

- الديم : " الديمة : المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق"² ، فالسحاب الذي يحمل الماء ولا يحدث برقًا ولا رعدًا ويصيب الأرض من ماءه سمّي ديم ، والدّيمة مشتقة من الدّوام أي الغمامة التي يدوم مطرها ، وكان قد ذكرها في هذا الباب من الديوان ثلاثة مرّات ففي هذين البيتين نجده يوظّف لفظة الدّيمة ، يقول فيهما :

أَذِنَ العَمَامُ بِدِيمَةٍ وَعَقَارٍ *** فَاْمْتَرَجَ لُجَيْنًا مِنْهُمَا بِنُضَارِ³

كما يصف في بيت آخر ديمة هطلاء ، أصابتهم فأثّرت على جدران منازلهم بأن مالت ، حيث يقول في هذا البيت :

وَأَسْقَيْنَا مِنْ دِيمَةٍ إِثْرَ دِيمَةٍ *** فَمَالَتْ بِهَا الجُدْرَانُ سَطْرًا عَلَى سَطْرِ⁴

- الحيا : وهو نوع من المطر " وقد جاء الحيا الذي هو المطر والخصب ممدودا وحيا الربيع : ما تحيا به الأرض من الغيث"⁵ ، يشبه هنا الغيث في إحياء الأرض وبتّ فيها الحياة والنبات ، فيصيب الأرض لتبقى خضراء على الدّوام ، فلا ينقطع عشبها وخصبها ، وقد ذكرها مرّة واحدة حيث نجدها في قوله :

وَهَا أَنَا مَبْلُؤُلُ الجَنَاحِ مِنَ الحَيَا *** يَصُوبُ وَمذْعُورُ الفِرَاحِ مِنَ الوَكْرِ⁶

- النّدى : هو من مسميات المطر الخفيف " والنّدى المطر والبَلَلُ ، وقيل للنّبت ندى

¹ المصدر السابق ، ص152.

² أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م12 ، ص219.

³ ابن خفاجة ، الديوان ، ص94.

⁴ المصدر نفسه ، ص97.

⁵ أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م14 ، ص215.

⁶ ابن خفاجة ، الديوان ، ص97.

لأنه من ندى المطر نبت¹ ، مثل الرذاذ ينزل من السماء على الأرض ويكون في الغالب ليلا ، ليصبح على أوراق النبات صباحا ، على شكل قطرات أو بلل خفيف فوقها ، جاء ذكره في هذا الباب باب الوصف ثلاثين مرة ، من الأبيات التي ذكر فيها نجد هذا البيت ، يقول :

قَامَ الْغِنَاءُ بِهَا وَقَدْ نَضَّحَ النَّدَى *** وَجَهَ الثَّرَى وَاسْتَيْقَظَ النُّوَارُ²

- العباب : " والعباب كثرة الماء ، والعباب المطر الكثير"³ ، فإذا ما اشتدّ المطر في النزول سمّي عبابا ، وهذا وصف لقوة هطوله وشدتها على الأرض ، فتجري السيول من كثرة ماء المنسكب ، وتغرق الأراضي به ، وقد تكرّر مرّة واحدة ، حيث يذكره في قوله في هذا المقطع :

تَطْفُو لِعُرَّتِهِ هُنَاكَ حُبَابَهُ *** وَيَمُوجُ مِنْ رِدْفِ أَلْفِ عُبَابٍ⁴

- الرّذاذ : هو شكل من أشكال المطر وهو الخفيف منه ، "الرذاذ : المطر ، وقيل الساكن الدائم الصغار القطر كأنه غبار ، وقيل : هو بعد الطلّ ، قال الأصمعي ، أخفّ المطر وأضعفه الطلّ ثم الرذاذ"⁵ ، فالمطر له مراتب من حيث القوة وشدّة النزول وكثرة الماء فيه ، فالرّذاذ من أنواع المطر الخفيف الذي يصيب الأرض ، هذا المطر الخفيف الذي بدوره يتنوع من حيث الصفات التي تميّزه ، وقد جاء تكراره في هذا الباب مرّة وهي في هذا البيت :

وَالرَّيْحُ تَنْخُلُ مِنْ رِذَاذٍ لَوْلَا *** رَطْبًا وَتَفْتِقُ مِنْ عَمَامٍ عَنبرًا⁶

¹ أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م15 ، ص314.

² ابن خفاجة ، الديوان ، ص96.

³ أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م1 ، ص573.

⁴ ابن خفاجة ، الديوان ، ص42.

⁵ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م3 ، ص492.

⁶ ابن خفاجة ، الديوان ، ص77.

- النوء : الأنواء تطلق على النجوم وأيضا كانت العرب تطلق هذه اللفظة على المطر
"كان ابن الأعرابي يقول : لا يكون نوء حتى يكون معه مطر وإلا فلا نوء .
وقال أبو المنصور : أول المطر الوسمي ."¹

إذا ما نظرنا في لغتنا العامية وجدنا هذا اللفظ (النوء) معروف ومتداول فيما بيننا بأنه
مسمى من مسميات المطر ، دائما ما نطلقه على المطر إذا نزل على الأرض ، وقد ذكر
لفظ النوء في باب الوصف مرتين منها قوله :

فَلَوَيْتُ مِعْطَفَهَا اِعْتِنَافًا حَسْبُهَا *** فِيهِ بِقَطْرِ الدَّمْعِ مِنْ أَنْوَاءٍ²

- دمع المزن : وهو المطر شبيهه بالدمع الساقط من السحاب ، كأن السحاب إذا بكى
نزل دمه علىنا مطرا ، وهذا دليل على الحزن ، حيث نجده قد كرره سبعة مرات في هذا
الباب منها قوله :

قَتَلِي بِحَيْثُ أَرْفُضُ دَمْعَ الْمُزْنِ لَا *** رُحْمًا فَاسْعَدَهُ الْحَمَامُ فَنَاحَا³

- القطر : مفردة القطر مأخوذة من كلمة قطرات التي تعني " المطر والقطار: جمع قطر
وهو المطر ، القطر ما قطر من الماء وغيره واحدته قطرة والجمع قطار، وسحاب قطور
ومقطار : كثير المطر"⁴ ، فالمطر جميعه عبارة عن قطرات ، تجمعت بعد أن كانت
بخار ، لتنزل من السحاب على الأرض ، وتختلف هذه القطرات في بعض الصفات التي
تنزل بها ، وقد ذكره الشاعر في باب الوصف مرتين ، منها في قوله :

يَجُولُ لِلْغَيْمِ كَحُلِّ فِيهِ *** وَلِلْقَطْرِ عِبْرُهُ الْمَدُّ وَالْجَزْرُ⁵

¹ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م 1 ، ص 176.

² ابن خفاجة ، الديوان ، ص 20.

³ المصدر نفسه ، ص 56.

⁴ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م 5 ، ص 105.

⁵ ابن خفاجة ، الديوان ، ص 73.

3-1 - مسميات السحاب :

- الغمامة : من أسماء الغيم ، "والغمام واحدته غمامة وهو مسمى من أسماء السحاب .
الغمامة " بالفتح السحابة ، والجمع غمام وغمام . الغمام الغيم الأبيض وإنما سمي غماما
لأنه يغمُ السماء أي يسترها"¹ ، فأصل كلمة غمام في معناها تدلّ على شيء حاجب
لشيء آخر ، وهذا ما يدلّ عليه السحاب فهو يحجب السماء والشمس ، وزاد فيه صفة
تميّزه عن باقي السحاب بأن يكون ذا لون أبيض ، وعليه تم ذكر مفردة الغمام في هذا
الباب ثلاثة عشر مرّة ، مثل هذا البيت الذي نجده يصف الغمام ويذكره ، فيقول :

لَفَاءٌ حَاكٌ لَهَا الْغَمَامُ مَلَاءَةٌ *** لَيْسَتْ بِهَا حُسْنًا قَمِيصُ صَبَاحٍ²

- المزن : " السحاب عامّة ، وقيل : السحاب ذو الماء ، واحدته مزنة ، وقيل: المزنة
السحابة البيضاء ، والجمع مزن ، والبرد حبّ المزن "³ ، وكلمة مزن في لغتنا المتداولة
تعني المطر أو السحاب الذي يحمل الماء ، فيستبشر الناس لرؤيته بقدم المطر ، ذكره
في هذا الباب ثلاث مرّات ، ففي هذا البيت يقول فيه :

وَالْمُزْنُ طَرْفٌ جَالٌ يَصْهَلُ أَشْهَبٌ ؛ *** وَالْبَرْقُ جُلٌّ قَدْ تَمَرَّقَ أَحْمَرُ⁴

- العارض : نوع من السحاب " والعارض والعارض ، السحاب الذي يعترض في أفق
السماء ، وقيل: العارض ما سدّ الأفق والجمع عروض"⁵ ، ففي الكلمة نفسها تحمل معنى
يدلّ عليه ، فالعارض هو ما يعترض ، والسحاب في السماء يعترض ضوء الشمس من
الوصول ، ويحجب السماء ، وقد يعني أيضا الغيم الماطر الذي يكون فيه ماء ، جاء
ذكره ثلاث مرّات ، فيقول واصفاً إياه :

¹ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م12 ، ص 443،444.

² ابن خفاجة ، الديوان ، ص59.

³ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م13 ، ص406.

⁴ ابن خفاجة ، الديوان ، ص86.

⁵ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م7 ، ص174.

فَذَهَبَ لَيْلُ السَّرَى عَارِضٌ *** يُفَضُّ بِالْمَاءِ مَا ذَهَبًا¹

- السَّحَاب : الغيم ، والسَّحَابَة : التي يكون فيها الماء سمّيت بذلك لانسحابها في الهواء والجمع سحائب وسحاب وسحب² ، ويعتبر لفظ السحاب اللفظ الأكثر تداولاً ، لأنّه الوصف الذي يطلق على كل أنواع السَّحْب ، غير المسميات الأخرى ، فالسَّحَاب ما يسحب بفعل الريح لينتقل من أرض إلى أخرى وقد يحمل معه المطر وقد لا يحمل ، هذه اللفظة تكرّرت في هذا الباب أربعة مرّات منها في قوله :

حَمَلَتْ بِهَا رِيحُ الْقُبُولِ سَحَابَةً *** سَحَابَةُ الْأَدْيَالِ تُلْمَسُ بِالْيَدِ³

- الرّباب : السَّحَاب يرب المطر أي يجمعه وينمّيه ، والرّباب بالفتح : سحاب أبيض وقيل : هو السَّحَاب واحده ربابة⁴ ، يشبه المزنّة في اللون فكلاهما أبيض ، والرّبابة ما كان من السَّحَاب ذو ماء سمي رباب ، أمّا غيره فليس برّباب ، وقد جاء ذكره مرّة واحدة وهذا في قوله :

أَلَا فَضَّلْتَ ذَيْلَهَا لَيْلَةً *** تَجُرُّ الرِّبَابَ بِهَا هَيْدَبًا⁵

- الهيدب : هو مفرد من مفردات السَّحَاب وهو " السَّحَاب الذي يتدلّى ويدنو مثل هذب القطيفة ، وقيل : هيدب السَّحَاب ذيله ؛ وقيل : هو أن تراه يتسلسل في وجهه للودق ؛ ينصب كأنّه خيوط متّصلة⁶ ، فإذا ما نزل المطر في مكان بعيد نراه وكأنّه سحاب يتدلّى إلى الأرض ، على شكل خيوط متّجهة إلى الأرض ، وعادة هذا الهيدب يدلّ على مكان نزول المطر ، فنراه عن بعد باديا من الهيدب الذي يتدلّى

¹ ابن خفاجة ، الديوان ، ص46.

² أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م1 ، ص461.

³ ابن خفاجة ، الديوان ، ص69.

⁴ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م1 ، ص402.

⁵ ابن خفاجة ، الديوان ، ص39.

⁶ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م1 ، ص780.

نحو الأرض ، جاء ذكرها مرّة واحدة في هذا الباب في قوله :

أَلَا فَضَلَّتْ ذَيْلَهَا لَيْلَةً *** تَجْرُ الرِّيَابَ بِهَا هَيْدَبًا ¹

- السّارية : والسّارية من السّحاب : التي تجيئ ليلا ، وفي مكان آخر : السّارية السّحابة التي تسري ليلا ، وجمعها السّواري ² ، فكلّ من يمشي فالليل فهو ساري ومن هذا أطلق على السّحاب الذي يأتي فالليل ليجتمع ، ويتفرّق صباحا وكأّنه لم يجتمع ، وقد تم ذكرها مرّة واحدة في قوله :

وَسَارِيَةٌ دَهْمَاءَ حَارَ بِهَا الدُّجَى *** فَشَبَّ بِهَا الْبَرْقُ الْمُنِيرُ ذُبَالًا ³

4-1 - مسميات البحر والأنهار والوديان والسيول والجداول:

- البحر: وهو ذلك التجمع الكبير للمياه وهو " الماء الكثير ، ملحا كان أو عذبا وهو خلاف البرّ ، سمي بذلك لعمقه واتّساعه وقد غلب عليه الملح حتى قلّ في العذب ، وجمعه أبحرّ وبُحورّ وبِحارّ ⁴ ، والمتداول حول لفظة البحر هو التجمع الكبير للمياه المالحة غير العذبة منها ، وقد تكرّرت لفظة البحر في هذا الباب من الديوان تسعة مرّات ، من هذا ما نراه في هذا البيت الذي يقول فيه :

وَقَدْ طَمَى بَحْرُ لَيْلٍ *** لَمْ يُعَقِبِ الْمَدُّ جَزْرًا ⁵

- الجدول : من الأنهار " النّهر الصغير (...) الليث : الجدول نهر الحوض ونحو ذلك من الأنهار الصغار يقال لها جداول ⁶ ، يكون الجدول على شكل ساقية فهو صغير على

¹ ابن خفاجة ، الديوان ، ص39.

² أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م14 ، ص382.

³ ابن خفاجة ، الديوان ، ص 118.

⁴ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م4 ، ص41.

⁵ ابن خفاجة ، الديوان ، ص81.

⁶ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م11 ، ص106.

على أن يكون نهرا ، وأكبر من أن يكون ساقية ، غير أنه تابع في شكله وتسميته لمفردات الأنهار ، نجده في هذا الباب من الديوان قد تكرر ثلاث مرّات منها هذا البيت الذي يصف فيه الخمر حيث يقول :

وَقَدْ سَالَ مِنْ كَأْسِ السُّلَافَةِ أَشْقَرٌ *** يُسَابِقُهُ مِنْ جَدُولِ الْمَاءِ أَشْنَبُ¹

- النَّهْرُ : النَّهْرُ و النَّهْرُ: واحد الأنهار ، وفي المحكم : النَّهْرُ والنَّهْرُ من مجاري المياه ، والجمع أنهارٌ ونُهُرٌ ونُهُورٌ² ، فالمياه التي تجري على الأرض وتشقّ طريقها في الأرض تسمى أنهارا ، وهناك العديد من الأنهار التي أصبحت معروفة ومشهورة ، مثل نهر النيل في مصر الدائم الجريان ، وعادة ما تتّجه هذه الأنهار لتصبّ في البحر ، هذا اللفظ قد ذكره إحدى عشر مرّة في هذا الباب من الديوان ، فيقول في هذا البيت موظفا مصطلح النهر :

لِللَّهِ نَهْرٌ سَالَ فِي بَطْحَاءٍ *** أَشْهَى وُرُودًا مِنْ لَمَى الْحَسَنَاءِ³

- دجلة : وهو اسم نهر بالعراق نهر دجلة والفرات وهو " اسم نهر ، من ذلك لأنّها غطّت الأرض بمائها حين فاضت ، وحكى اللحياني في دجلة دَجَلَة ، بالفتح (...). ودجيل : نهر صغير متشعب من دجلة⁴ ، ونهر دجلة والفرات معروفان ومشهوران بالعراق ، وتعني أيضا الأنهار القوية ذات الماء الكثير ، فهي صفة لتدفق الماء بكثرة ، وقد ذكره مرّة واحدة في هذا البيت الذي يصف فيه النَّهْرُ والحباب ، فيقول :

وَرَكِبْتُ دِجْلَتَهُ يُضَاحِكُنِي بِهَا *** فَرَحًا حَبِيبٌ شَاقَتْنِي وَحُبَابُ⁵

¹ ابن خفاجة ، الديوان ، ص48.

² أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م5 ، ص236.

³ ابن خفاجة ، الديوان ، ص22.

⁴ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م11 ، ص236.

⁵ ابن خفاجة ، الديوان ، ص42.

- الخليج : "والخليج من البحر: شرم منه ، ابن سيده : والخليج ما انقطع من معظم الماء لأنه يُجْبَدُ منه ، وقد اخْتَلَجَ ؛ وقيل: الخليج شعبة تتشعب من الوادي تعبرُ بعض مائه إلى مكان آخر ، والجمع خُلُجٌ وخُلُجانٌ ¹ ، فما انقطع من الماء عن طريقه ومكانه المعروف سمّي خليجًا ، وعادة ما يخصّ به مياه الوديان التي تنفصل عن الوادي لتتجمّع في مكان آخر ، نجده قد وظّفه خمسة مرّات حيث يقول مجسدا كلمة خليج في هذا البيت :

وَحَنَّ إِلَى سَفَرٍ فَطَارَ إِلَى السَّرَى *** يَخُوضُ خَلِيجًا أَوْ يَجُوبُ كَثِيْبًا ²

- الموج : وعادة ما يخصّ البحر إذا كان هائجا وكانت ريحه قوية ، ومنه " موج : الموج ما ارتفع من الماء فوق الماء ، والفعل ماَجَ الموجُ ، والجمع أمواجٌ ؛ وقد ماج البحر يموج موجًا وموجانًا ومُؤوجًا ، وتموّجَ : اضطربت أمواجه ³ ، فإذا ارتفع الماء وتلاطم فوق بعضه بسبب الرياح سمي موجا ، وتنتج هذه الأمواج بفعل قوة الرياح وشدتها على الماء ، وقد تكرّرت سبعة مرّات في هذا الباب ، منها ما جاء في هذا البيت :

لَاظَمْتُ لُجَّتَهُ بِمَوْجَةِ أَشْهَبٍ *** يَرْمِي بِهَا بَحْرُ الظَّلَامِ فَتُرْتَمِي ⁴

- الوادي : " ابن سيده : الوادي كلّ مفرج بين الجبال والتلال والإكام ، سمّي بذلك لسيلانه ، يكون مسلكا للسيل ومنفذاً ⁵ ، والوادي طريق الماء من الجبال هذه المياه التي تسيل بقوة في المنحدرات ، وتجتمع هذه الوديان الصغار لتملئ وادٍ كبير يتّجه للبحر، وتتميّز الوديان بكونها مؤقتة الجريان أثناء نزول الأمطار بقوة ، ما يؤدي إلى تجمع المياه في المنحدرات والجبال ، لتندفع نزولا عبر السيول وتتجمع في أودية كبيرة ، وقد تكرّر أربعة مرّات في باب الوصف ، منها في قوله :

¹ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م2 ، ص257.

² ابن خفاجة ، الديوان ، ص33.

³ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م2 ، ص370.

⁴ ابن خفاجة ، الديوان ، ص144.

⁵ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م15 ، ص384

وَسَرَحَةٌ وَاِدٍ هَزَّهَا الشَّقُّ لَّا الصَّبَا *** وَقَدْ صَدَحَ العُصْفُورُ فَجْرًا فَهَيْئَمَا ¹

- الأتَيَّ : هو الماء الذي يساق "والأتَيُّ : النَّهْرُ يسوقه رجلٌ إلى أرضه ، وقيل : هو المفتاح ، وكلُّ مسيلٍ سهَّلته لماءٍ أتَيٌّ ، وهو الأتَيُّ ؛ حكاه سيبويه ، وقيل : الأتَيُّ جمع. وأتَى لأرضه أتياً: ساقه" ² ، السيول تشقُّ طريقها بنفسها أمَّا الأتَيُّ فيعني الماء الذي يتمُّ توجيهه بفعل إنسان فهو أتَيٌّ وهو لفظ للماء الذي يسيل في الأرض ، وقد وظَّفه مرَّتين ، منها في قوله :

أَلَا طَمًا بَحْرٌ أَتَيْ طَمًا *** وَأَجْرَى كَفَيَّ سَمَاءً تَجُودُ ³

- لُجَّةٌ : " ولُجَّةُ البحر : حيث لا يدرك قعره ، ولُجُّ الوادي ؛ جانبه . ولُجُّ البحر : عرضنه قال: ولُجُّ البحر الماء الكثير الذي لا يُرى طرفاه" ⁴ ، فالماء الكثير المتجمع سواء الذي انبسط في الأرض فتوسَّع ولم يرى طرفه ، أو تجمع فلم يدرك قعره لعمقه سمِّي لُجَّةً ، وقد قام ابن خفاجة بذكرها في هذا الباب (باب الوصف) ثلاث مرَّات ، مثل ما نجده في قوله هذا :

وَلُجَّةٌ تُفْرِقُ أَوْ تُعْشَقُ *** فَمَا تَنِي أَحْشَاءُهَا تَخْفِقُ ⁵

- العُغْمِيمُ : وهو اسم يطلق على وادٍ في بلاد المغرب ، وقد تمَّ ذكره مرَّةً واحدة في هذا الباب وهو في قوله :

وَمَا شَاقِنِي إِلَّا حَفِينُ أَرَاكَةِ *** وَسَجَعَ حَمَامٌ بِالْعُغْمِيمِ تَرْنَمَا ⁶

¹ ابن خفاجة ، الديوان ، ص141.

² أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م14 ، ص15.

³ ابن خفاجة ، الديوان ، ص70.

⁴ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م2 ، ص354.

⁵ ابن خفاجة ، الديوان ، ص108.

⁶ المصدر نفسه ، ص141.

- المدّ والجزر : عادت ما تطلق على ارتفاع منسوب المياه وانخفاضها وعادة ما يخصّ به ماء البحر و" المدّ : كثرة الماء أيام المدود وجمعه مدود وقد مدّ الماء يمدّه مدّا... يقال مدّ البحر"¹ ، فالماء الذي يمتدّ من البحر إلى الشاطئ باندفاع يسمّى مدّا لامتداده وارتفاعه إلى اليابسة أي إلى الأعلى .

الجزر : ضدّ المدّ ، وهو رجوع الماء إلى خلف. قال الليث : الجزر ، مجزوم ، انقطاع المد ، يقال مدّ البحر والنهر في كثرة الماء وفي الانقطاع"² ، أمّا الجزر فهو عكس امتداد الماء ، فهو تراجع في ارتفاع منسوب المياه نحو اليابسة أي يتراجع إلى الأسفل ، وقد تكرّرت لفظة المدّ والجزر مرتين منها في قوله :

وَقَدْ طَمَى بَحْرُ لَيْلٍ *** لَمْ يَعْقِبِ الْمَدُّ جَزْرًا³

5-1- مسميات الثلجيات :

- الثلج : هو الماء " الذي يسقط من السماء ، معروف ، وفي حديث الدعاء : واغسل خطاياي بماء الثلج والبرد ، إنّما خصّهما بالذكر تأكيدا للطهارة ومبالغة فيها لأنّهما ماءان مفطوران على خلقتهما ، لم يستعملا ولم تنلها الأيدي ، ولم تخضهما الأرجل ."⁴ والثلج يخصّ منطقة القطب والأماكن العالية حيث البرودة الكثيفة ، وهو عبارة عن بلّورات صغيرة تشبه الرماد أو الغبار ، وقد استعمل الشاعر ابن خفاجة هذه اللفظة في هذا الباب من الديوان مرّة واحدة في هذا البيت الشعري :

وَقَدْ بَرَّقَ الثَّلْجُ وَجْهَ الثَّرَى *** وَالْحَفَّ عُصْنُ النَّقَا فَاحْتَبَى⁵

¹ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م3 ، ص397.

² المرجع نفسه ، م4 ، ص133.

³ ابن خفاجة ، الديوان ، ص81.

⁴ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م2 ، ص222.

⁵ ابن خفاجة ، الديوان ، ص39.

- البرد : هو اسم لحبيبات الماء الجامدة التي تسقط من السماء و" البرد بغير هاء فإنّ الليث زعم أنّه مطر جامد ، والبرد حبّ الغمام ، تقول منه : برُدّت الأرض ، وبرِدَ القوم : أصابهم البرد ، وأرض مبرودة كذلك ¹ ، فعندما يتعرض بخار الماء إلى هواء بارد يتحول إلى قطرات ماء ، وإذا اشتدّ التيار البارد برودة فإنّها تتحول من الحالة السائلة إلى حالتها المتجمدة ، فتنتج بلّورات جليدية من قطرات الماء المتساقطة ، وتكون هذه البلّورات مختلفة الأحجام من كبيرة وصغيرة على حسب قطرات الماء ، وهذا المُسمّى قد وظّفه مرّة واحدة في هذا الباب ، والتي وجدناها في هذا البيت حيث يذكره قائلاً :

يَا رَبِّ قَطْرٍ جَامِدٍ حَلَّى بِهِ *** نَحَرَ الثَّرَى بَرْدٌ تَحَدَّرَ صَائِبٌ ²

- الضَّرِيب : هو " الصقيع والجليد . وضربت الأرض ضرباً وصُقِّعَتْ : أصابها ضرب ، وأضربت السّمائم الماء إذا أنسفته حتى تسقيه الأرض (...) كلّ هذا من الضَّرِيب والجليد والصقيع الذي يقع على الأرض ³ ، فالماء الذي يصبح متجمداً على الأرض محدثاً طبقة من الجليد بسبب البرودة يسمّى ضربياً ، وهو من أسماء التَّلْجِيّات وقد تكرر في باب الوصف ثلاث مرّات ، مثل ما نجده في هذا البيت يقول :

نَسَجَ الضَّرِيبُ بِهَا الظَّلَامَ حَمَامَةً *** فَأَبْيَضَ كُلُّ غُرَابٍ لَيْلٍ أَسْوَدٍ ⁴

6-1- مسميات الآبار والبرك :

- الغدير : وهي المياه الرّاكدة في مكان واحد وهي " القطعة من الماء يغادرها السّيل أي يتركها ⁵ ، وتعني أيضاً ما يخلفه السّيل والوادي من برك الماء الصّافية .

¹ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م3 ، ص85.

² ابن خفاجة ، الديوان ، ص29.

³ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م1 ، ص546.

⁴ ابن خفاجة ، الديوان ، ص70.

⁵ أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م5 ، ص9.

وظف لفظة الغدير في هذا الباب مرة واحدة ، في قوله :

جَمَدَ الْغَدِيرُ بِمَتْنِهِ وَلَرَبِّمَا *** أَغْشَاكَ إِفْرَنْدٌ لَهُ سَيَالٌ¹

- عين الماء : من أسماء الينابيع وهي " العين التي يخرج منها الماء ، والعين : ينبوع الماء الذي ينبع من الأرض ويجري ، أنثى ، والجمع أعين وعيون ، ويقال غارت عين الماء ، وعين الركية : مَفَجَر مائها ومنبعها² ، والعين : من الماء ما يخرج من الأرض ، فَتَشَقُّ في الأرض له الطَّرِيق ليخرج للسطح ، وهي منبع يقصده النَّاس للشرب والارتواء من العطش ، ففي القديم كان الرَّحالة يتوجهون إلى هذه العيون في طريق رحلاتهم للاستزادة بالماء والرَّاحة قرب هذه العيون ، فإذا ما وُجد الماء في مكان ما وُجد العشب والشَّجر ، وهذا ما يبعث الراحة للرحالة ، ذكرها صاحب الديوان في هذا الباب مرة واحدة في قوله :

فَإِنْ بَكَيْتُ وَقَدْ يَبْكِي الْخَلِيلُ فَعَنْ *** شُجُوٍ يُفَجِّرُ عَيْنَ الْمَاءِ فِي الْحَجْرِ³

لقد كان شعر ابن خفاجة حافلا بعناصر الطَّبيعة ، ولاسيما الماء الذي وجدنا فيه ما وجدنا من مسمياته وصفاته ، التي يزخر بها في طياته ، هذا ما يدلّ على ثراء بلاد الأندلس بالخيرات والثروات الطَّبيعية ، التي جعلت منها موطن الجمال الطَّبيعي بامتياز ، حيث نقل إلينا ابن خفاجة هذا الجمال والسر عبر شعره في وصف جميل .

7-1- إحصاء مفردات الماء في ديوان ابن خفاجة (باب الوصف) :

في هذه الدِّراسة سنقوم بعملية حسابية لتعداد مفردات الماء في شعر ابن خفاجة (باب الوصف) وكيف كان تكرار المفردات فيه حسب النسب المئوية :

¹ ابن خفاجة ، الديوان ، ص116.

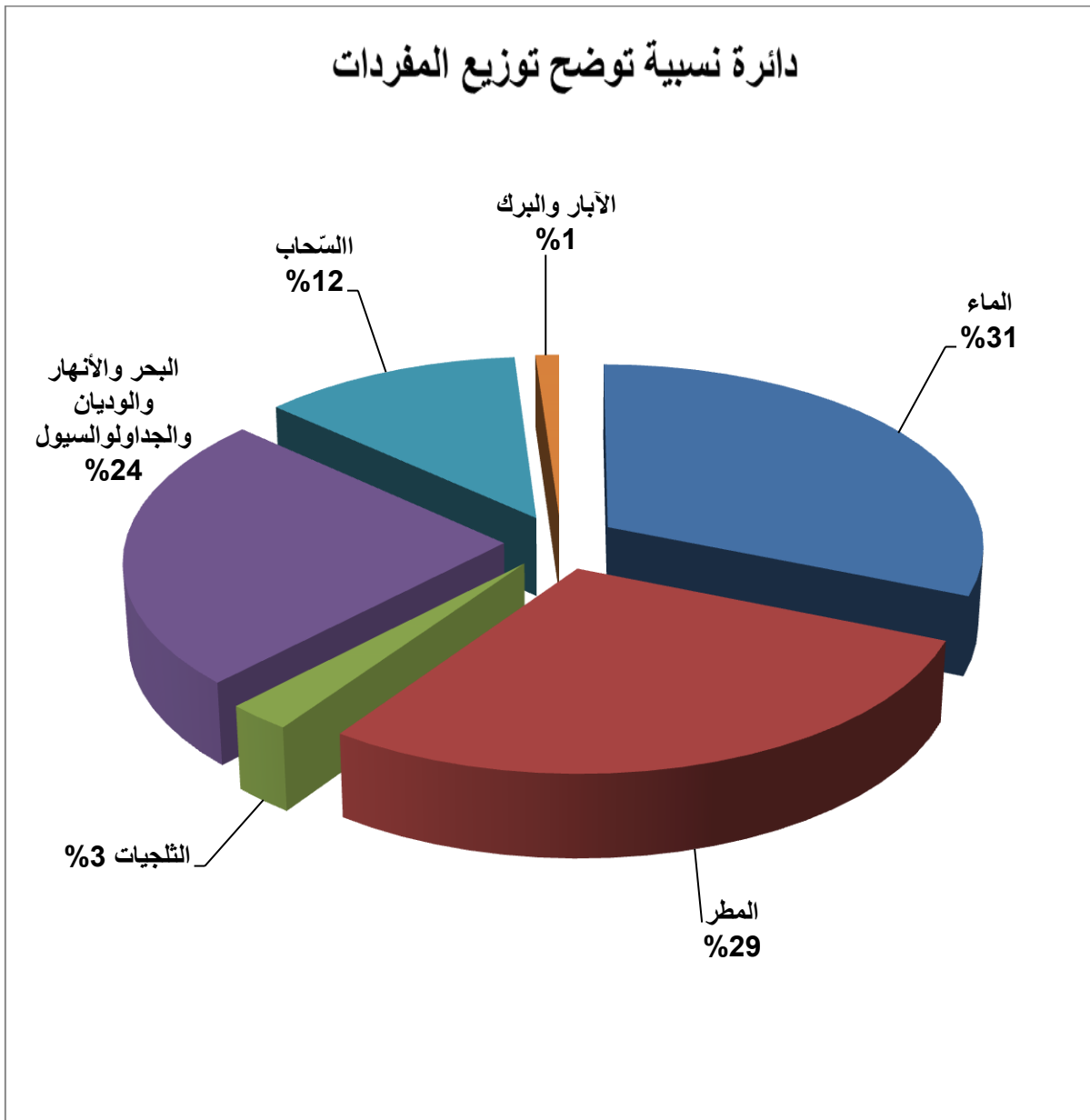
² أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، م13 ، ص303.

³ ابن خفاجة ، الديوان ، ص99.

المفردات	مفردات الماء	مفردات المطر	مفردات السحاب	مفردات البحر والأنهار والوديان والجداول والسيول	مفردات الثلجيات	مفردات الآبار والبرك	التعداد
1	الماء	المطر	الغمام	البحر	الثلج	الغدير	
2	الثماد	الغيث	المزن	النهر	البرد	العين	
3	المورد	الخبيا	العارض	الخليج	الضريب		
4	الأحساء	العباب	السحاب	الواد			
5	الحاباب	الديم	الرياب	الأتي			
6	المزاد	الطل	الهيذب	اللجة			
7	قرار	الرزاذ	السارية	الغميم			
8		النوء		الموج			
9		الندى		دجلة			
10		القطر		الجدول			
11				المدّ والجزر			
مرات التكرار	61 مرة	56 مرة	24 مرة	48 مرة	5 مرات	2 مرات	
النسبة	31%	29%	12%	24%	3%	1%	100%

نلاحظ من خلال هذا الجدول أنّ عدد المسميات والألفاظ الحاضرة تختلف في عدد تكرارها في الديوان ، بمجموع هو 40 مفردة متوزعة حسب الجدول بنسب متفاوتة مقسّمة على ستّة مفردات للماء .

وقد جسّدنا هذه الدراسة على دائرة نسبية تبين لنا كيف توزّعت هذه النسب المتفاوتة لمفردات الماء في باب الوصف من الديوان ، وأيّ المفردات التي قام بتوظيفها الشاعر أكثر من الأخرى :



من خلال هذا الرسم التوضيحي الذي مثّلناه بدائرة نسبية يتبيّن لنا أنّ مفردات الماء تمثّل أعلى نسبة وهذا ما يدلّ على أنّ المحيط الذي يعيش فيه كثير الماء ، ثم تليها مفردات المطر بأقل نسبة ، وهذا يعني أنّ الماء منتشر في البحيرات والأنهار بكثرة والمطر بالرغم من نزوله إلّا أنّ الماء متوفر ، ثمّ بعدها مفردات البحر والأنهار والوديان والسيول والجداول ، فهي موجودة لكنّها ليست كثيرة فهي قليلة نوعاً ما في الطبيعة ، ثم تأتي مفردات السحاب الذي يكون محمّل بالماء فجاء بنسبة أقلّ منه كون السحاب بدون مطر لا قيمة له ، وبعدها الثلجيات والثلجيات تأتي فقط في الشتاء البارد ولا تعود بعدها ، فهي محدودة نسبياً لذا لم تكن حاضرة بكثرة ، وفي الأخير كآخر نسبة نجد الآبار والبرك بأدنى نسبة من بين تكرار المفردات الأخرى ، وهذا لقلّتها كون الماء متوفر بكثرة والأمطار تنزل في أغلب المواسم ، لذا لم تكن بتلك القيمة الكبيرة في توظيفها .

2- أبعاد الماء الدلالية في شعر ابن خفاجة (باب الوصف) :

إنّ الأدب ظاهرة تاريخية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمختلف الظواهر التاريخية الأخرى ، منها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فهو يتطور بتطورها ويتأثر بتغيرها وتبدّلها دون أن ينفصم عن أصله الذي نشأ منه وتاريخه الذي اعتمده وجذوره التي انبثق منها ...¹ وعليه فالشاعر ابن خفاجة نظم شعره في مثل هذه الظروف ، واستوحى من جمال الطبيعة ، وجعل عناصرها رموزاً للغرض الذي يكتب فيه فمن هذه العناصر التي تعددت الأغراض المستخدمة فيها نجد : عنصر الماء ، الذي هو مجال دراستنا هذه سواء بلفظه العام أو المفردات الأخرى التي تدلّ عليه :

2-1- البعد السياسي للماء :

لقد عاش الشاعر في عصر ملوك الطوائف ، أي في القرن الخامس هجري وقد خضع هذا العصر للعديد من التقلّبات السياسية ، حيث صحبت هذه الفترة معارك وحروب ، وقد كان في شعر ابن خفاجة جزء لها في شعره ، حيث نجده يصف لنا تلك المعارك والملاحم آنذاك ، جاعلاً من عنصر الماء رمزا يحمل في طياته إحياءات سياسية من ذلك قوله :

رَكَضَ الْجِيَادِ إِلَى الْجَلَادِ صَبَاحًا *** وَاسْتَشْعَرُوا النَّصْرَ الْعَزِيزَ سِلَاحًا

وَاسْتَقْبَلُوا أَفْقَ الشَّمَالِ بِجَحْفَلٍ *** نَشَرَ الْقِتَامُ عَلَى الشَّمَالِ جَنَاحًا

قَدْ مَاسَ فِي أَرْجَائِهِ شَجَرُ الْقَنَا *** وَجَرَى بِهِ مَاءُ الْحَدِيدِ فَسَاحًا²

لفظة الماء هنا تحمل رمز الدّم الذي جرى على السيوف ، فكان الماء في هذا القول يحمل دلالة سياسية ، وهو وصف لتلك المعركة الضارية التي كانت قد نشبت

¹ صالح خالص ، إشبيلية في القرن الخامس الهجري ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 1965م ، ص107.

² ابن خفاجة ، الديوان ، ص55.

هناك ، وهو دليل على دموية المعركة التي خاضوها ، وكون الماء والدم سائلان مختلفان سواء من حيث اللون أو الرائحة ، إلا أنّ الشاعر جعل بينهما رابط مشترك يشتركان فيه ، وهو صفة الجريان لأنّ كلاهما سائل ، فلفظ الماء جعل منها في الصورة التي وصفها الشاعر أقرب إلى الذهن من لفظة الدم ، وما زادها وضوحا هو اللفظ الذي بعدها كلمة الحديد حيث بثّ في التعبير الجامد الحياة من خلال حسن التوظيف والتمثيل.

وفي قصيدة أخرى يقول الشاعر :

قَدَحَتْ يَدُ الْهَيْجَاءِ مِنْهُ بَارِقًا *** مُتَلَهَّبًا يُزْجِي الْفَنَانَ سَحَابًا

وَرَمَى الْحِفَاطَ بِهِ شَيَاطِينَ الْعِدَى *** فَانْقَضَ مِنْ لَيْلِ الْغُبَارِ شِهَابًا

بَسَامٌ تُغْرِ الحُلَى تَحْسَبُ أَنَّهُ *** كَأْسٌ أَتَارَ بِهَا الْمِرَاجُ حُبَابًا¹

الشاعر هنا يذكر لنا لفظة السحاب ، وطبيعيا عندما يرى الإنسان السحاب يستبشر بالمطر والغيث ، حيث يرتبط السحاب في ذاكرتنا بالثوء والمطر ، وكون السحاب هو ماء متبخر في الهواء فهو مفردة دالة على الماء ، من خلال هذا فهو يصف لنا الوقية وجعل من السحاب حاجبا كالغبار الذي تثيره الخيل يحجب الرؤية وسط الحرب ، كما أنّه أعطى لثغر الفرس لونا مشرقا شبّهه بالكأس الذي مزج فيه الخمر بالماء ، فتشكّل الحباب من خلال مزجه والحباب هو تلك الفقائيع التي تتشأ في الماء ، وهي هنا ترمز إلى تعب الخيل في الحرب واجهادها حيث من كثرة الإجهاد أدّى بها إلى تطاير اللعاب على شكل الرغوة ، وهذا من كثرة الصّهيل والزّجر في وسط ميدان المعركة ، وعند استرجاع بلنسية من يد العدو قال ابن خفاجة :

الآن سَحَّ غَمَامُ النَّصْرِ فَأَنْهَمَلَا *** وَقَامَ صَفْوُ عَمُودِ الدِّينِ فَأَعْتَدَلَا²

¹ المصدر السابق ، ص36.

² المصدر نفسه ، ص126.

حيث استخدم لفظة الغمام وهو السحاب ، وهنا قصده في صياغته للجملة قصد به هطول المطر فالكلمة التي سبقت الغمام (سح) وتعني قطر الغمام أي هطل المطر ، والسح من مسميات المطر ، فهطول الغيث من الغمام بعد جفاف وجفاء تسلط على أهله وبلده بلنسية ، التي طال أمد العدو المستعمر عليها ، فهو بهذا رمز للفرج والاستقلال واستعادة الحياة والحرية .

وفي موضع آخر من القصيدة ، يقول :

تَرَى بِهِ تَصِلُ مَاءَ السَّيْفِ مُنْسَكِبًا * * * تَجْرِي وَجَاحِمُ نَارِ الْبَأْسِ مُشْتَعِلًا ¹

في الواقع لا يوجد ماء للسيف ، وإنما السيف يسقى بالدماء ، فالماء هنا يرمز به إلى كثرة الدماء التي سالت على السيوف كأنها الماء منسكب .

2-2- البعد النفسي للماء :

إذا تكلمنا عن رمزية الماء نفسياً فإننا سنتكلم عن المشاعر والأحاسيس التي تجتاح نفسية الشاعر من فرح أو حزن أو حب أو كره أو شوق أو حنين ، وغير ذلك مما يدور في وجدان الشاعر من خلجات نفسية لم يستطع البوح بها مباشرة ، أو عجزت اللغة المباشرة على إيصالها ، فلجأ الشاعر إلى الاستعانة ببعض الرموز التي تحمل الحيوية في طياتها والمعاني العديدة عكس اللغة الجامدة الغير موحية ، وككل الشعراء فإننا نجد الشاعر ابن خفاجة قد جسّد مشاعره وخلجاته النفسية ، فقد وظّف الماء في شعره كرمز لما يشعر به ويختلج في نفسه من احساس ، وهذا ما سنراه في هذه الأبيات الشعرية لابن خفاجة ، ففي هذا البيت يقول :

وَمَعِينُ مَاءِ الْبَشْرِ أَبْرَقُ هَشَّةً * * * فَكَّرْتُ مِنْ صَفَحَاتِهِ مِنْ مَشْرَبٍ ²

¹ المصدر السابق ، ص127.

² المصدر نفسه ، ص26.

تحدّث الشاعر في هذا البيت واصفاً الماء ، فالماء في الطّبيعة مصدر راحة للعين البشرية الناضرة ، حيث يلجأ إليه البشر لكي يتخلّصوا من تلك الطاقة السلبية ، التي تجتاحهم وليكسبوا ويشحنوا أنفسهم بطاقة إيجابية بديلة ، وهو بهذا مصدر يبعث السرور والهدوء في النفس المضطربة والمعكّرة ، التي تتخبط في متاهات الحياة الدنيوية .

كما يقول أيضا في هذا البيت :

وَالرَّوْضُ وَجْهٌ أَزْهَرُ وَالظَّلُّ فَرْعٌ *** أَسْوَدُ ، وَالْمَاءُ ثَغْرٌ أَشْنَبُ ¹

في هذا البيت الشاعر يشبّه جمال منظر الروض في الطّبيعة بوجه الإنسان ، وليس أي وجه وإنما وجه خاص غير كل الوجوه ، وهو الوجه الذي يبعث من ملامحه عن الراحة حيث يبان من ملمحه الصفاء ، فقال (وجه أزهـر) حيث الوجه الأبيض يأخذ اللون الزهري في بعض أجزائه ، وتابع وصفه هذا حتى شبّه الماء فشبّهه بالابتسامة التي تحتل الفم وتظهر عليه وتزيد الوجه نورا ، حيث قال (ثغر أشنب) أي المبسم الجميل والعذب ، فالماء هنا مصدر السعادة والبسمة ، حيث يرمز إليها ، فإذا ما رأيت الماء والصفاء والعذوبة ، انعكست على المحيّا بسمة وسرور وراحة .

وكذلك نجده في أبيات أخرى يتكلم عن الحزن والألم ، فيجعل من الماء وسيلة لإيصال هذا الشعور ، فيقول في هذا البيت :

قَتَلِي بِحَيْثُ أَرْفُضُ دَمْعُ الْمُزْنِ ، لَا *** رُحْمِي ، فَأَسْعِدُهُ الْحَمَامُ فَنَاحَا ²

من خلال قراءتنا للفظـة دمع المزن يتبادر لنا البكاء والدموع الكثيرة التي تسيل ، فهو هنا يصور لنا الألم والحزن الذي يسيطر على الأهالي والناس ، الذين يفقدون عزيزا ويفرق بينهم الموت وليس الموت العادي الذي نحن مقبلون عليه ، ولكن عن طريق فعل

¹ المصدر السابق ، ص44.

² المصدر نفسه ، ص56.

القتل وهو أشدّ ألمًا من الآخر ، كونه كان محتمًا عليه مواجهته ولم يكن يسعى إليه ، فهو هنا يبيّن كثرة سقوط الدموع وتشبيهه بالمزن زاده وضوحا وجلاءً ، فالمطر هنا رمز للدمع والبكاء والحزن والألم الكبير الذي يشعر به ، وكذلك يقول في بيت آخر دالًّا على الأسى والحزن :

تَنُوحُ لِي الْوَرَقَاءُ وَهِيَ خَلِيَّةٌ *** وَيَنْهَلُ دَمْعُ الْمُرْنِ وَهُوَ جَمَادُ¹

يرمز أيضا دمع المزن في هذا البيت لحالة حزنه وبكائه ، فيصفه بالدمع الذي ينهال من العين الباكية ، وزاد في وصف حِدّة الحزن والأسى الذي يمرّ به ويسيطر عليه ، بأن وصفه بالمطر الجامد الذي ينزل متجمدا (البرد) ، وهذا دليل على مقدار الأسى الكبير الذي ينهش قلب الشاعر .

كذلك في حزنه يقول أيضا :

فَإِنْ بَكَيتُ وَقَدْ يَبْكِي الْخَلِيلُ فَعَنْ *** شُجُوٍ يَفْجَرُ عَيْنَ الْمَاءِ فِي الْحَجَرِ²

الشاعر في هذا البيت يتحسّر على أيام العمر ، التي تمرّ مرّ السحاب ومع كل يوم يمرّ عليه فهو في عدّ تنازلي ، حيث يتحدّث عن حزنه وحزن صديقه على الأيام الضائعة منهم ، باتجاه الفناء والزوال من الحياة ، حيث من شدّة الحزن والقهر الذي يسيطر على قلب الشاعر ، ما يجعل من الحجر الصلب يحنّ ويحزن له فيلين ويتفجّر ليخرج منه الماء ، فما بالك بالإنسان الذي هو حساس ، فإنّه لا محالة سيحزن ويبكي لما يمرّون به ، وفي هذا البيت نجد أنّ لفظة الماء جاءت دلالة على مدى الحزن واليأس الذي يمرّ به الشاعر ، فهو رمز للبكاء الشديد والتألم ، ويقول في موضع آخر يصف الأحزان والهموم التي تسيطر عليه :

¹ المصدر السابق ، ص63.

² المصدر نفسه ، ص137.

فَبِتْنَا وَبَحْرُ اللَّيْلِ مُنْتَظِمٌ بِنَا * * * نَرَى الْعَيْسَ غَرْقَى وَالْكَوَاكِبُ عَوْمًا¹

من يقرأ هذا البيت سطحيا للوهلة الأولى يظن أنّ الشاعر يصف فيه الليل وظلمته وما يكون فيه ، إلا أنّ المتمعن جيدا يدرك أنّ الليل موطن الهموم والأحزان ، حيث شبّهه بالبحر الذي يلتطم فيه الموج ، فكأنّه يمثل الأحزان بالموج المتلاطم الذي يضرب الشاعر بقوة ، فلفظة البحر دليل على عمق وكثرة واتساع همومه ، وما زاد المعنى وضوحا حين قال : (ملتطم بنا) فهو بهذا يبيّن أنّ البحر هائج ، مثل الهموم التي تستولي عليه فالليل ، ومنه نجد أنّ البحر يوحي به لكثرة الهموم والأحزان .

كما نجد الشاعر يوظف ألفاظ ومسميات الماء للتعبير في غرض التغرّل والحب ، حيث وصف بها محبوبته التي أعجب بجمالها وهي " الريحانة " فكانت الألفاظ تحمل معاني ومشاعر الحب والعاطفة ، فيقول :

أَنَا وَاعْتَرَّازُ السَّيْفِ وَالضَّيْفِ وَالنَّدَى * * * بَخِيرِ مَلِيكَ هَشٍ فِي صَدْرِ مَجْلِسٍ²

وهذا التعبير كلّه للريحانة التي شغف بها وسحرته بجمالها ، فوصفها بكل شيء عزيز حيث شبّهها بالسيف في مكانتها وهيبتها وبريقها ، وبالضيف العزيز في حضوره وما ينثره من فرح وشوق له بعد غياب طال عليه ، وبالندى الناعم الذي يتساقط من السماء على النبات وعلى البشر ، فالندى معروف بنعومته ورطوبته ، والندى له أوقات يكون فيها وليس دائما ، كأن نجده في الصباح الباكر أو في الليل ، حيث يبعث شعورا جميلا في النفس ، والندى هنا رمزٌ به إلى "ريحانة" ، فجعل صفة النعومة التي يتّصف بها الندى تشبه محبوبته فكانت كأنّها ندى المطر ، فكانت لفظة الندى دالّة على الحسن والجمال ، أكثر من الألفاظ الأخرى كقطرات المطر .

وفي تعبير آخر يصفها أيضا ، فيقول :

¹ المصدر السابق ، ص99.

² المصدر نفسه ، والصفحة نفسها.

فَجَاءَتْ تَرُوقُ الْعَيْنِ فِي مَاءِ نَظْرَةٍ *** تَشُنُّ عَلَى أَعْظَافِهَا ثَوْبَ سُندُسٍ¹

يصف الشاعر لنا نظرتة لها وكيف تبدو له صورتها عند رؤيتها ، وكيف للعين أن تعجب برؤيتها ، لما تمتلكه من حسن طلعة وجمال ساحر للعين ، فشبه حضورها أمام مرأى عينه ، كأنها تروق داخل العين في ماء تلك النظرة التي نظرها إليها ، وهذا كله دليل على إعجابه "بريحانته" ، ويقول في قصيدة أخرى أيضا يصف جمال الريحانة ويبيدي تضحيته لأجلها ، فيقول :

فَمِنْ مَاءِ جَفْنِي لَهَا مَكْرَعٌ *** فَسِيحٌ وَمِنْ رَاحَتِي مَغْرَسُ²

جعل الشاعر من ماء جفونه الذي لا يختلف اثنان حول قيمة وغلاء ماء الجفون لدى الإنسان ، فوضعه لها فداء يفندي به ، وجعله لها كأنه ماء الكرع الذي ترده الحيوانات وفي بعض الأحيان عند الضرورة يشرب منه البشر لحاجتهم الماسة له ، وهذا يدل على أنّ الشاعر مستعد لاحتواء هذه "الريحانة" بكل شيء عزيز فيه ، فهو يتغزل بها كأنها حسناء فاتنة لتبقى معه وتبادلته الحبّ والعشق الذي يكتنه لها ، فأخذ الماء هنا معاني الحب والتضحية في سبيل الحبيبة ، بغية امتلاكها وبقائها معه .

3-2- البعد الاجتماعي للماء :

لقد كان للظروف السياسية القائمة في الأندلس في القرن الخامس هجري تأثيرا كبيرا على الواقع الاجتماعي ، فما آلت إليه الأندلس آنذاك لم يكن بالشيء الهين ، هذه الظروف التي أدت إلى تعدد الطوائف في هذا المجتمع ، والتي بدورها أدت إلى تعدد الثقافات بين أفراد المجتمع الواحد ، مما ساهم في بروز عدّة ظواهر اجتماعية ، وهذا ما جعل الشعراء يتسابقون في تجسيدها في أشعارهم والتّرميز إليها ، ومن الرّموز التي استعملوها : عناصر الطبيعة ، هذه الأخيرة التي تميّزت بها الأندلس على غرار غيرها

¹ المصدر السابق ، ص100.

² المصدر نفسه ، ص101.

من الدّول الإسلامية الأخرى ، ومن هذه العناصر الماء الذي صنع به الشاعر ابن خفّاجة لوحات شعرية جميلة في الوصف ، ومن بين اللوحات التي دلّ عليها الماء في شعره اللوحة الاجتماعية والتي أكسبها لفظ الماء إichاءات لم يكن ليحملها لفظها الصريح ، وفي هذا التحليل لهذه الأبيات الشعرية سنعرف مدى جمالها ، يقول ابن خفّاجة :

وَتَخْتَمْتُ مِنْ فِصِّهِ بِغَمَامَةٍ *** كَفٌّ تَكُونُ عَلَى السَّمَاحِ سَمَاءٌ¹

في هذا البيت يصف لنا الخلق العظيم الذي لا يمتلكه الكثير من البشر ، وهو خلق التسامح ، فوصف خاتم اليد التي أكرمه بالسّماح ، وشبّه التسامح الذي حظي به هنا بغمامة ، التي عادة ما تدلّ على نزول المطر ، فهي دلالة على العطاء ، ثم أتبعها بوصف الكف المعطاءة التي حنّة عليه فشبّهها في السّماح بالسّماء الواسعة ، وهذا دليل على الأخلاق العظيمة التي كان يتّصف بها المجتمع الأندلسي آنذاك من جود وكرم وتسامح ، فهذا البيت كما رمز إلى الأخلاق والأبيادي الكريمة أيضا في نفس الوقت فيه معنى آخر ورمز لعادات أخرى في هذا المجتمع وهي عادت التزيّن وارتداء الحلي الجميل ، حيث ذكر الخاتم الذي يحتوي الفص (الفص هو الحجر الكريم أعلى خاتم اليد) هذا الخاتم وصفه في أحسن وصف .

ونجد الشاعر في بيت آخر يتحدّث عن الخمر في وصف لمنظرها الجميل ، حيث يقول في هذا البيت :

فَكَانَ كَأْسَ سُلَافَةٍ *** ضَحِكَتْ إِلَيْهِمْ عَن حُبَابٍ²

وصف الشاعر هنا الخمر (كأس سلافة) ، التي تُبادل شاربها الابتسامة ، فمثل هذه الضحكة بحباب الماء ، الذي يظهر عادة في المياه ، وهو عبارة عن فقائيع تتصاعد وتطفو على الماء ، وصفها على أنّها علامة لضحكة تبديها كؤوس الخمر

¹ المصدر السابق ، ص17.

² المصدر نفسه ، ص32.

لشاربيها ، فكأنها تتواصل معهم وتحاكيهم وتعايشهم في لهوهم ، فالحباب هنا جسّد لنا ظاهرة اجتماعية وهي ظاهرة اللّهُو والشّرْب ، حيث وصف مظهر الخمر الذي كان حاضرا في هذا المجتمع آن ذاك .

وفي بيت آخر أيضا واصفا الخمرة ، يقول فيه :

بِأَبْيَضَ كَالْمَاءِ مُسْتَوْدَعٌ *** مَا شِئْتَهُ مِنْ أَحْمَرَ كَاللَّهَبِ¹

شبه لون كأس الخمر بلون الماء الأبيض الشفاف ، وشبه الكأس بالمستودع الذي يحتوي الشراب (الخمر) والشراب ذا لون أحمر كلهيب النّار ، وهنا وصف لظاهرة اللّهُو والسّكر ، حيث رمز لون الماء فيها إلى لون الكأس التي تحتوي الشراب ، وفي بيت آخر أيضا ، يقول :

تَضَاكَتْ عَنْ حُبَابٍ *** يُقْبَلُ الْمَاءَ تُغْرُهُ²

كذلك هذا وصف للخمر حين يتم مزجه بالماء ، فعندما يسكب الماء على الخمر يتصاعد الفقاع من الشراب ، أو كما ذكره بالحباب ، فشبهه الشاعر بالضّحكة التي تبديها الخمرة لشاربيها ، وشبه الماء حين يسكب على الخمر وكأنه يقبلها ، ففي هذا وصف وتشبيه جميل لعملية مزج الشراب ، جعل منها هيئة بشرية يصف شكلها في صورة رائعة ولوحة فنية محكمة الإبداع لمجالس اللّهُو والأنس ، ويقول أيضا في موضع آخر يصف فيه الخمرة :

وَعَلَى الْأَفْدَاحِ وَالْأَنْوَاحِ مِنْ *** حَبِّ نُورٍ وَتَبْرٍ أَصْفَرُ³

يصف في هذا البيت مكان اللّهُو والسّكر الذي يلجأ إليه شارب الخمر ، حيث يذكر

¹ المصدر السابق ، ص38.

² المصدر نفسه ، ص73.

³ المصدر نفسه ، ص78.

الأقداح التي توضع فيها الخمر ، ويصف الخمر وما فيها من الحباب الذي يطفو على سطحها ، والذي يظهر كأنه نور يتلألأ في وسطها ، وهذا دليل على انتشار هذه الظاهرة الاجتماعية في أوساط هذا المجتمع وهي ظاهرة اللّهُو والسّكر ، وهو هنا يصفها وصفا جميلا وكأنه يصف لنا الطّبيعة ، جاعلا من عناصر الطّبيعة مادّة يرمز بها إلى ما يراه ، ويتابع هذا الوصف لمجالس اللّهُو والخمر في هذا البيت الذي يصف لنا مكان شرب الخمر الذي تزيّنه المُدّامة فيقول :

عَازِلَتُهُ حَيْثُ الْمُدَامَةُ وَالْحُبَابَةُ * * * وَجَنَّةٌ تُدْمَى وَعَيْنٌ تَنْظُرُ¹

يربط الشاعر الحباب الذي يمثل صفة الخمر ، التي تُجَهِّز للشرب عند مزجها بالماء فيذكرها بالمُدّامة ، حيث هذا يدلّ على أنّ الشراب يتم تحضيره للشرب في ذلك الوقت بالتحديد ، وفي هذا وصف لمجالس الأُنس واللّهُو التي يتم فيها التغزل ، وتابع الوصف لهذا المنظر الذي رآه ، فوصف احمرار الوجنة عند السّكر ، وهذا دليل على الإكثار من الشّراب ، ثم أتبع يصف العين التي تنظر وتراقب في هذا المكان .
و بيت آخر يقول أيضا في وصف الخمر :

عَثَرْتُ بِذَيْلِ السُّكْرِ فِيهِ عَيْشَةٌ * * * وَلِلرِّيحِ فِي مَوْجِ الْخَلِيجِ عَثَارُ²

الشاعر هنا يبيّن لنا أنّه وجد في حياة السّكر والشّرب معيشة ، مثل ما تجده الريح في البحر من أمواج تتلاطم بالخلجان ، فشبه حياته وهو يتخبّط في سكره بالأمواج التي تنتجها الرياح ، فكأنّ الخمر والسّكر ريح تهب عليه فتأخذه من يمين إلى شمال ، وهو لا يستطيع مقاومتها ، وهذه ظاهرة من مظاهر إدمان الشّراب وصعوبة النّجاة منه والتّخلي عليه ، فكأنّه مقيد بها لا يستطيع الخلاص منها ، فجعل من لفظة الموج الذي تتحكم فيه الرياح كالمدمن على الخمر ، فالخمر هي التي تتمايل بشاربها حيث تشاء ، ويتحدّث

¹ المصدر السابق ، ص76.

² المصدر نفسه ، ص90.

أيضا على الخمر فيقول :

أَمَّا وَمَسِيلُ مَائِلِ الْغَيْثِ كَالسَّطْرِ *** كَمَا أَتْرَعُ السَّاقِي الزُّجَاجَةَ بِالْخَمْرِ¹

شبه الشاعر هنا مسيل ماء الغيث الذي ينتج عن تهاطل الغيث كأنه سطر ، مثل ما يفعل ساقى الخمر في أماكن الشرب ، والذي يقوم بملأ زجاجات الخمر للشاربين حين تفرغ منها الشراب ، فشبه سقى الشراب بالسيل الناتج عن المطر ، وفي هذا رمز إلى ديار اللّهُو التي كانت في عصره وظاهرة السقي للشاربين ، فالشاعر هنا يستند في تشبيهاته إلى الطّبيعة كقاعدة يلجأ إليها لجلب مادته اللّغوية ، ويقول كذلك واصفا بيوت اللّهُو والغناء في ذلك الوقت :

فَمِنْ عَارِضٍ يَسْقِي وَمِنْ سَقْفٍ مَجْلِسٍ *** يُعْنِي وَمِنْ بَيْتٍ يَمِيلُ مِنَ السُّكْرِ²

لقد شاعت ظاهرة الغناء واللّهُو في أوساط المجتمع الأندلسي ، وكثر فيها المولعون بالغناء من أمثال " زرياب في عهد عبد الرحمان الأوسط وهو الأمير الذي كان مولعا بالغناء ، حتى أنه كان يبعث إلى المشرق من يشتري له الجواري الذين اشتهر بالغناء ، بل وخصص لهم مكانا في قصره عرف بدار المدنيات ...³ ، وكانت من بين الفنون الرائدة آنذاك ما عرف بفن تروبادور ، " حيث يمتاز هذا الشعر بأنه شعر عاطفي ، يوقع على الآلات الموسيقية ...⁴ .

وفي هذا البيت وصف لأحد هذه الأماكن التي يرتادها ، فيصف هذا المكان الذي يعجّ بالسكر واللّهُو والغناء ، وشبه من يقوم بسقيهم كأنه عارض ، وهو السحاب الماطر المحملّ بالماء الذي لا يتوقف مطره ، فشبه الساقى بالعارض وهذا دليل على كثرة الشراب

¹ المصدر السابق ، ص96.

² المصدر نفسه ، ص97.

³ نواف أحمد عبد الرحمان ، حضارة الأندلس ، الجنادرية للطبع والتوزيع ، (د.ب) ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص192.

⁴ أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، ج1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص224.

والخمر هناك ، وتابع وصفه بأن قال (وبيت يميل من السكر) وهذا تأكيد على حالة التَّمَل وهي أقصى درجات السكر ، أن جعل من البيت يسكر معهم ويتمايل من التَّمَل ، وعليه فالعارض أحد مسميات الماء ، ولفظه هنا يصف حالة اجتماعية يقوم بها أفراد المجتمع الأندلسي ، وهذا يبين لنا مدى تعلقهم بالطرب والغناء ، وقد كان شائعا في أوساطهم فنون غنائية أخرى ، وهي إحدى المظاهر الاجتماعية التي امتازوا بها ، والتي جسدها لنا الشاعر في شعره جاعلا من لفظ الماء معبرا عليها في شعره ، وقد زادت صورة مسميات الماء في التشبيه وضوحا وبيانا ، وأضاف للمعنى رونقا وبريقا غير ما تضيفه الألفاظ المباشرة العادية .

ظاهرة السكر والشرب كانت بارزة من خلال شعر ابن خفاجة في العديد من الأبيات ، وهذه الظاهرة تدلّ على الترف والبذخ الذي كان يعيشه المجتمع الأندلسي آنذاك ، وبسبب الانفتاح على المجتمعات والثقافات الأخرى وتقبلهم لها ، أدّى بالمجتمع الأندلسي إلى انتشار مظاهر الانحلال الأخلاقي ، والذي من مظاهره انتشار بيوت اللهو والمجون وشرب الخمر ، وهذا نتاج ضعف الوازع الديني لدى أفراد المجتمع وبدل أيضا على سداجة الحكام .

مثله مثل العديد من المجتمعات لم يسلم المجتمع الأندلسي من تسلط الحكام ، وفي هذا يقول ابن خفاجة :

وَمُرْتَبَعٌ حَطَّطَ الرَّجُلَ مِنْهُ *** بِحَيْثُ الظِّلُّ وَالْمَاءُ القَرَّاحُ

يُحَرِّمُ حُسْنَ مَنْظَرِهِ مَلِيكَ *** يُحَرِّمُ مُلْكَهُ القَدْرَ المَتَّاحُ

فَجَزِيَةٌ مَاءِ جَدَوْلِهِ بُكَاءٌ *** عَلَيْهِ ، وَشَدُوُّ طَائِرِهِ نِيَّاحٌ¹

يتحدّث الشاعر عن إحدى الرياض التي كان يقصدها للتنزه ، لكن كما لم تشتهي لها

¹ ابن خفاجة ، الديوان ، ص52.

الأقدار أن تبقى متاحة للجميع ، تسلط عليها أصحاب الملك والحكم ، فلم يعد يستطيع الولوج إليها كسابق عهده ، فيصف الماء الصافي (القراح) الذي يمتاز به هذا الروض ، والجدول الذي أصبح باكيا لما حلّ به ، فلم يعد كما كان يزوره الناس فرحين مبتهجين لرؤيته ، فالجدول يبكي والطائر ينوح لما صنعه القدر بهم من تسلط الحكام ، وضم هذه الخيرات الطبيعيّة إلى أملاكهم ، بعد أن كانت ملك الجميع .

ومن خلال دراستنا هذه نلاحظ أنّ الشاعر قد أجاد في شعره ، وهذا من خلال توظيف مسميات الماء للتعبير عن العديد من الظواهر السائدة في ذلك العصر ، وقد كانت ألفاظ الماء دالة وموحية أحسن إحياء لما يصبو إليه الشاعر ، وما يسعى إلى إيصاله للقارئ ، وقد جاءت مسميات الماء متنوعة في شعره ، فالشاعر قد ألمّ بعناصر الطبيعة كونه عاش في وسط طبيعي بامتياز ، فجاءت تشبيهاته محكمة ولوحاته الشعرية التي رسمها إبداعية ، فهو لم يحظ بلقب "جنّان الأندلس" من فراغ بل استحقّ هذا اللقب بجدارة لما في شعره من إبداع في الوصف ودقّة في توظيف العناصر الطبيعيّة .

- خاتمة :

في نهاية كل عمل هناك عبرة وفائدة نتعلمها ، كما أنّ هناك نتائج وخلصات يتم استنتاجها في طريقنا للوصول إلى المبتغى ، الذي هو النجاح ، هذه الاستنتاجات تكون حوصلة تجمع كل ما اكتسبناه واطّلعنا عليه من خبرات ومعلومات ، وعليه فبحثنا هذا لم يخلو من هذا ، مثله مثل بقية البحوث فبعد دراستنا توصلنا في الأخير إلى مجموعة من النتائج التي سنلخصها في مجموعة من النقاط الآتية :

- إنّ الرّمز وسيلة فنيّة رائعة في البناء الشعري .
- لا يحيط بالجوانب الفنية للرّمز إلا الشاعر المبدع المتمكّن من اللّغة.
- الرّمز وسيلة إيحائية بديلة عندما تعجز اللّغة عن إيصال المعنى .
- تقوم لغة الرّمز على جعل القارئ جزء من العملية الإبداعية للنص.
- الطّبيعة الجميلة هي مصدر إلهام للشعراء في نظمهم لقصائدهم ، لذلك كان لا بدّ لهم من توظيف عناصرها ومكوناتها كرموز للدلالة على بعض المعاني التي تتوافق معها ، بل وكان هناك شعر خاص بها وهو شعر الطّبيعة ، الذي يقوم فيه الشاعر بوصف الطّبيعة وكل أجزائها التي تتركّب منها .
- شعر الطّبيعة شعر خاص يحمل وصف للمكونات الطّبيعية سواء الحيّة أو الصّامته أو الصّناعية ، هذا النوع من الشعر قام باستحداثه الأندلسيين وهو شعر الطّبيعة ، حيث قاموا بوصف طبيعة الأندلس الخلّابة .
- تعدّدت مفردات ومسميات الماء التي تدلّ عليه ، كما أنّ الماء كان حاضرا عبر التاريخ في الشعر العربي القديم من العصر الجاهلي إلى آخر عصر.
- للماء قيمة قدسية كبيرة ، وما دلّ على عظمة وقدسيتها توظيفه في القرآن الكريم ، وجعل منه رمزا من الرّموز التي تتّصف بها الجنّة .

- الشاعر ابن خفّاجة شاعر ورائد كبير من رواد شعراء الطّبيعة بالأندلس ، فهو متمكن من اللّغة ومحيط بجميع جوانبها ، حيث جاء توظيفه لعنصر الماء توظيفا جيدا ومعبراً على ما قصده .
- عكست اللّغة الشعرية خلجات الشاعر في نفسه وما مرّ به ، وجسّدت انفعالات وتجارب الشاعر بشكل واضح .
- جاءت اللّغة سهلة وواضحة حيث نجد أنّ الشاعر منسجم مع البيئة التي عاش فيها من خلال استعمال لفظ الماء الذي كانت تزخر به الأندلس ، وأبدع في توظيف معانيه .
- تعدّدت المفردات التي تحمل معنى الماء في شعر الشاعر ابن خفّاجة ، حيث قام بتوظيف العديد من مفردات الماء في شعره وكانت ألفاظ الماء وألفاظ المطر هي الأكثر توظيفا ، وأقلّ منها ألفاظ الآبار والأنهار والوديان والسيول والبحار والسحاب .
- جاءت ألفاظ الماء موحية أحسن إيحاء لما كان يصبو إليه الشاعر ويريد إيصاله ، وقد استطاع أن يوظّف هذه المفردات بالشكل المناسب ، حيث زاد في المعنى جمالا ورونقا ، وهذا راجع إلى أنّ الشاعر متمكن في مجال اللّغة والنّظم .
- أغلب ألفاظ الماء جاءت في وصف الخمر ومجالس اللّهو والسكر ، وهذا ما يدلّ على الوضع المعيشي والتّرف الذي كان يعيشه .
- تعلق الشاعر بالطّبيعة بشكل كبير ، حيث نجدها سحرته بجمالها واستحوذت على خياله ، فأصبح أسيرا لها ، وهذا واضح من خلال الاعتماد في شعره على الطّبيعة ومكوناتها.
- تم توظيف دلالات الماء في أغلب الأغراض من مدح وغزل ووصف الطّبيعة ومظاهر الحياة الاجتماعية.

- استعمل الشاعر الصور الشعرية والصور البيانية والتشبيهات التي تتوّعت أشكال التعبير بها ، ما ساعد القارئ على رسم المعنى في مخيلته .
- تعدّدت القوافي من قصيدة لأخرى وتتوّعت من مقيدة إلى مطلقة .
- تتوّعت البحور الشعرية التي نظم فيها فاستعمل البحور الطويلة (الطويل - الكامل ...) لكونها تحمل سعة استيعابية كبيرة ، حيث تسمح للشاعر بالتعبير عن ما يجتاح داخله من مشاعر .
- جاءت حروف الروي متنوعة ولم يعتمد على حروف محدّدة دون غيرها .

وفي الأخير نؤكّد على أنّ الشاعر ابن خفّاجة استطاع أن يصف الجمال الطّبيعي الذي شاع في الأندلس وبقي شعره مجال للدراسات المتعدّدة ، حيث مازال خالدًا من عصرٍ مضى إلى يومنا هذا ، وسيظلّ صيت الشاعر يجول في الأرجاء دائمًا ، كونه وصف بكل فخر الأندلس ذلك المجد الإسلامي الضائع منّا وتلك الحضارة الغابرة التي بناها المسلمون بسواعدهم وعلمهم ، حين كنّا دولة عظيمة ...

- قائمة المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم .

(1) أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، ج 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) .

(2) أحمد ابن محمد المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، م 4 ، تح/ إحسان عباس ، دار الصادر، بيروت ، لبنان ، 1388هـ/1968م .

(3) أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، عالم الكتب ، القاهرة ، مصر ، ط 1 ، 1985م.

(4) إبراهيم فتحي ، معجم المصطلحات الأدبية ، التعااضدية العمالية للطبع والنشر ، سفاقس ، تونس ، ع 1 ، 1986م.

(5) إسحاق بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة ، الديوان ، شرح يوسف شكري فرحات ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان (د.ط) ، (د.ت) .

(6) إسماعيل عباس العبيدي ، العلامة التجارية دلالاتها الوظيفية والتعبيرية ، أمواج للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط 1 ، 2014م .

(7) بشار بن برد ، ديوان شعر شار ابن برد ، محمد بدر الدين العلوي ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) .

(8) بهاء الدين المنشئ الأربيلي ، التذكرة الفخرية ، تح/ الأستاذ الدكتور حاتم صالح الضامن ، دار البشائر للطباعة والتوزيع ، دمشق ، سوريا ، ط 1 ، 1425هـ/2004م .

(9) جبور عبد النور ، المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1979م .

- (10) جمال نجم العبيدي ، التجديد في شعر بشار ، مجلة كلية التربية الأساسية ، الجامعة المستنصرية ، كلية التربية الأساسية ، ع66 ، 2010 م .
- (11) جورجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، مصر ، (د.ط) ، 2012 م .
- (12) ابو الحسن حسن علي ابن رشيق القيرواني ، العمدة في صناعة الشعر ونقده ، ج1 ، مطبعة دار السعادة ، القاهرة ، مصر ، ط3 ، 1225هـ/1907 .
- (13) حسن محمد نور الدين ، الأعلام من الأدباء والأمراء (ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) .
- (14) حسين ابن أحمد الزوزني أبو عبد الله ، المعلقات السبع مع الحواشي المفيدة ، تح/ خير أبو الوفاء ، مكتبة البشرى ، كراتشي ، باكستان ، ط1 ، 1432هـ/2001 م .
- (15) حنا الفاخوري ، الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1986 م .
- (16) خالد يوسف ، قصة الأدب العربي ، مؤسسة الرحاب الحديثة ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) .
- (17) الخليل ابن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين ، ج2 ، تح/ الدكتور عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) .
- (18) رسول البلاوي و حسين المهدي ، الرموز الطبيعية ودلالاتها في شعر يحي السماوي ، إيران بوشهير ، مجلة اللغة العربية و آدابها ، ع3 ، 1416هـ .
- (19) زيدون خلدون جميل ، أسطورة الآلهة تموز وعشتار الخالدة ، القدس العربي ، 12 فيفري ، 2020 ، سا21:00 ، <https://alquds.comuk>

- (20) زينب عبد الكريم حمزة ، وصف الطبيعة في الشعر العباسي لوحات كشاجم أنموذجاً ، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية ، جامعة بابل ، ع35 ، 2017م.
- (21) سمدون حمادي وآخرون ، دور الأدب في الوعي القومي العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1982م .
- (22) سويد وفاء ، التحليل الفيزيوكيميائي ، الحنفية(الوادي) وكذا مياه معدنية تجارية ومقارنة النتائج بالأنظمة العالمية ، مذكرة لنيل شهادة الماستر أكاديمي في الكيمياء ، جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي ، إشراف الأستاذ حوات عمار ، 2018/2017م .
- (23) شكيب أرسلان ، الحل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، ج1 ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، ط1 ، 1355هـ/1936م .
- (24) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات الأندلس) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، (د.ط) ، 1119م .
- (25) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي الحديث ، العصر الإسلامي ، ج2 ، دار المعارف ، مصر ، ط7 ، (د.ت) .
- (26) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط11 ، (د.ت) .
- (27) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول ، دار المعارف ، مصر ، ط16 ، (د.ت) .
- (28) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني ، دار المعارف ، مصر ، ط2 ، (د.ت) .

- (29) ابو العباس شمس الدين أحمد ابن محمد بن أبي بكر بن خلّكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، م1 ، تح/ الدكتور إحسان عباس ، دار الصادر ، بيروت ، لبنان ، 1398هـ / 1978م .
- (30) عبد البر ابن محمد ابن محمد ابن محمود ابن الشحنة الحلبي ، الذخائر الأشرفية في ألغاز الحنفية ، تح/ محمد حسن إسماعيل الشافعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 1287هـ .
- (31) عبد العظيم علي قناوي ، الوصف في الشعر العربي ، ج1 ، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى الباني وأولاده ، مصر ، 1949م .
- (32) عبد اللطيف بلعالم ، نزع أيونات الفلوريد من المياه الصالحة للشرب في منطقة ورقلة باستعمال الجير وكبريتات الألمنيوم ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الري ، جامعة قاصدي مرباح ورقلة ، إشراف الأستاذ باوية قيس ، 2011/2010م.
- (33) عزوز زرقان ، شعر الاستصراخ في الأندلس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 1971م .
- (34) عزيز عرباوي ، رمزية الماء في التراث الشعري العربي ، دائرة الثقافة والإعلام ، الشارقة ، الإمارات ، (د.ط) ، 2015م .
- (35) عزيزة فؤال بابتي ، موسوعة الأعلام العرب والمسلمين والعالميين ، ج1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 1971م .
- (36) علي ابن ابي طالب ، ديوان شعر إمام البلغاء ، مكتب الدراسات ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع ، عين مليلة ، الجزائر ، (د.ط) ، 2011م .
- (37) علي عشتري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، (د.ط) ، 1417هـ/1997م .

- (38) علي غانم فتحي الفنداوي ، مفردات الماء في الشعر العباسي (200هـ/350هـ) ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها ، جامعة البصرة ، إشراف الدكتور نهلة محمد حسن ، 1434هـ/2013م .
- (39) عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، تفسير القرآن العظيم ، 7م ، تح/ مصطفى السيد محمد و آخرون ، مؤسسة قرطبة للطبع والنشر والتوزيع ، الجيزة ، ط1 ، 1421هـ/2000م .
- (40) عمر إبراهيم توفيق ، الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس موضوعاته وفنونه ، جامعة كركوك ، العراق ، طبعة منقحة ، 2011م .
- (41) أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم ابن منظور ، لسان العرب ، ج5 ، دار الصادر بيروت ، لبنان ، مادة (رَ ، مَ ، زَ) ، (د.ط) .
- (42) الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، تح/ عبد المنعم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة للطباعة ، بيروت ، لبنان ، ط8 ، 1426هـ/2005م .
- (43) فيليب سيرنج ، الرموز في الفن -الأديان - الحياة ، دار دمشق ، ترجمة المحامي عبد الهادي عباس ، سورية ، دمشق ، ط1 ، 1992م .
- (44) قيس ابن الملوح ، ديوان قيس ابن الملوح (مجنون ليلي) ، رواية أبي بكر الوالبي ، دراسة وتعليق يسرى عبد الغني ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1420هـ/1999م .
- (45) محمد سعيد الدغلي ، الحياة الاجتماعية في الأندلس ، دار أسامة ، (د.ب) ، (د.ط) ، 1984م .
- (46) محمد سهيل طقوش ، تاريخ المسلمين في الأندلس ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1431هـ/2010م .

- (47) أبو محمد عبد الجبار بن ابي بكر (ابن حمديس) ، ديوان ابن حمديس ، رفع عبد الرحمان النجدي ، تح/ إحسان عباس ، دار الصادر ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) .
- (48) محمد عبد الله غنان ، دولة الإسلام في الأندلس (العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ط4 ، 1417هـ/1997م .
- (49) محمد عبد المنعم خفاجي ، الأدب في التراث الصوفي ، مكتبة غريب للطباعة ، القاهرة ، مصر ، (د.ط) ، (د.ت) .
- (50) محمد فتوح أحمد ، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، دار المعارف ، مصر ، (د.ط) ، 1977 م .
- (51) محمد كرد علي ، غابر الأندلس وحاضرها ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، ط1 ، 1431هـ/1923م .
- (52) مفيد محمد قميحة ، ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ط) ، (د.ت) .
- (53) نجلاء إسماعيل أحمد ، الإعلام الطائفي ، دار المعتز للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2017م/1438هـ .
- (54) نهاد عباس زينل ، الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس وأثرها على التطور الحضاري في أوروبا-القرون الوسطى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 1971م .
- (55) نواف أحمد عبد الرحمان ، حضارة الأندلس ، الجنادرية للطبع والتوزيع ، (د.ب) ، (د.ط) ، (د.ت) .
- (56) أبو هلال العسكري ، ديوان المعاني ، ج1 ، تح/ أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1414هـ/1993م .

- ملحق :

إذا ذكرنا الأندلس فلا بدّ من ذكر الطّبيعة الساحرة والجمال الرياني الذي تتميّز وتتفرد به ، التي تعدّ ميزة تمتاز بها وتعرف من خلالها ، وبتميّزها بهذا الجمال كان لابدّ من تجسيدها في الأدب ، فقد كان اقبال كبير عليها من الخارج لرؤية سحرها هذا ، في الوقت نفسه اخذت اهتمام كبير لدى الشعراء الأندلسيين أنفسهم ، فظهر نوع من الشعر يسمى بشعر الطّبيعة ، والذي يقوم على وصف كل ألوان وعناصر الطّبيعة عامّة ، وقد برز العديد من الشعراء الذين قاموا بوصف الطّبيعة ، من أمثال " ابن زيدون" وكذا "ابن خفّاجة" ، هذا الأخير عرف عنه بأنّه من الرواد الكبار في وصف الطّبيعة ، وكان له شغف كبير بها ، كونه عاش وسطها وتأثر بها ، وفي هذا التعريف الموجز سنعرف قليلا عنه وعن حياته .

1 - بيئة الشاعر ابن خفّاجة :

لقد عاش ابن خفّاجة في الأندلس ونشأ فيها ، حيث تربّى " في أسرة علم وأدب وغير قليل من الثراء ، وقد كان يتغنّى بما يتمتع به من متاع الدنيا والمكان الذي عاش فيه ، غير أنّه لم يحاول أن يفدّ على أمراء الطوائف ليمدحهم كغيره ، كونه كان لابأس به في الرزق ميسور الحال ، فقد ورث عن أبيه رزقا منعه من الوفود إليهم ."¹

عاش ابن خفّاجة مرحلة ملوك الطوائف أي أنّ هذا العصر يبدأ من سقوط الدولة الأموية في الأندلس ، وتفكّكه إلى دويلات سياسية وطائفية متنازعة وهو يمثل عصر الانقسام والتفكّك (...). ويمتد هذا العهد من (422-479هـ / 1031-1086م).²

¹ ينظر : دكتور شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات الأندلس) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر (د.ط) ، 1119هـ ، ص317،318.

² الدكتور نهاد عباس زينل ، الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس وأثرها على التطور الحضاري في أوروبا-القرن الوسطى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 1971م ، ص59.

أما الفترة التي عاشها تحديداً ، في أيام دولة المرابطين عاش ابن خفاجة.¹

المرابطون وهم إحدى قبائل صنهاجة ، ينتمي المرابطون الملتزمون إلى قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة وهي تتفرع من صنهاجة الصحراء ، وكانت تعيش في أقصى جنوبي المغرب الأقصى في الصحراء² ، ولأنّ الدول المسلمة تستجد ببعضها ضد الأعداء والنصارى كان لابدّ من اللجوء إلى نجدتهم ، ضد النصارى الطامعين الذين توالى هجوماتهم على الأندلس والتسلط على المسلمين .

وقد تم الاستجداد بهم من قبل ملوك الطوائف ، فأنجدوهم وسارعوا إليهم لكن سرعان ما انقلب المرابطون على حلفائهم وإخوانهم ، فقد اجتذبتهم نعم الأندلس فحطموا دول الطوائف ، وبسطو حكمهم ما يقارب نصف قرن من الزمن.³

عصر المرابطون امتدّ هذا العصر من (479-612هـ / 1092-1145م).⁴

ولكن كان قدوم المرابطين إلى السلطة من الناحية السياسية قد خلق تنافساً شديداً على الوظائف ، وقد برزت في هذا العصر طبقة وهي طبقة أصحاب الوظائف ، وظهور طبقة الجنود الملتزمين الذين استغلوا مصالح الرعية ، فاللثام كان شارة المرابطين وبهذا يتوجب على الناس إكرامهم ، هذا ما جعل العبيد يتلثمون حيث ظنّهم الناس من المرابطين ، هذه الطبقة استغلت اللثام لفرض الضرائب على بقية الناس من الشعب عامّة ، والذين بدورهم لم يحتجوا على ضرائبهم ظناً منهم أنّها أوامر السلطان ، وأنّها تصبّ في مصلحة

¹ حسن محمد نور الدين ، الأعلام من الأدباء والأمراء (ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ط.) ، (د.ت.) ، ص 8.

² محمد سهيل طقوش ، تاريخ المسلمين في الأندلس ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط3 1431هـ/2010م ، ص 479.

³ محمد عبد الله غنان ، دولة الإسلام في الأندلس (العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، ط4 ، 1417هـ/1997م ، ص 18.

⁴ الدكتور نهاد عباس زينل ، الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس وأثرها على التطور الحضاري في أوروبا-القرن الوسطى ، ص 60.

سلطانهم ويستفاد من أموالهم في أمور العامّة ، غير أنّ السلطان لم يفرضها عليهم وليس له علم بها إطلاقاً¹.

وكانت هناك العديد من القوانين التي وضعها المرابطون ، والتي تضبط نظام تعيين الموظفين في الحكم ، كأن يكون هناك رعية مرابطين وآخرين غير مرابطين لضمان حقوقهم ومصالحهم ، أمّا من الناحية العمرانية والاجتماعية فقد عُرفت الأندلس بفن العمارة ، وقد شاع عن مدنها هذا ووصفت بجمالها وازدهارها ، فقد كانت ذات أسوار تحيط بها ، ولها أبواب تقفل ليلاً وعلى أبوابها كان يوجد بوابون ، حيث يدفع الناس لهم المال مقابل دخولهم لها وتستفيد من هذه الأموال الخزينة العامّة للمدينة ، ويأجر منها العاملون عليها ، وفي داخل المدينة هناك حرس يطوفون ليلاً ، أشداء وأقوياء يهابهم الناس عامّة حيث يبتئون الرعب والدّعر في نفوس الخلق ، وفي خارج هذه المدن تنتشر الأعمال الغير قانونية ، كالتجارة بالمسروقات والتجار الغير شرعيين ، وإن كانت المدن الأندلسية اشتركت في العديد من أمور الحياة ، فقد اختلفت هذه المدن الأندلسية فيما بينها من حيث مجال شهرتها ؛ فمنها من كانت على ضفاف الأنهار مثل إشبيلية كانت تنشط على النهر ، حيث ترسّ السفن التي منها ينتقل الناس بين الضفتين وتشحن البضائع ، أما قرطبة فاشتهرت بالزراعة وجني الثمار، والزراعة أساساً كانت ذات أهمية كبيرة عند الأندلسيين².

ومن الناحية الفكرية والأدبية ؛ فقد كان الشعب الأندلسي يتجدد بعد أن كان في بادئ الأمر مقلداً ، لما عهده عن شعر العرب المعهود ، وتمثّل هذا في مخطّات ابن عبد ربه وابن شهيد وابن هانئ ، حتى بدأت حركة التحرر في القرن الخامس للهجرة ، مرحلة قام فيها الشعراء بتمثيل بيئتهم الجديدة ونزعاتهم النفسية ، فقد ظهر تجديد في الغزل والخمريات ووصف الطبيعة والعمران ، ومن بين شعراء هذه الحقبة نجد : ابن زيدون

¹ ينظر : حسن محمد نور الدين ، الأعلام من الأدباء والأمراء (ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس) ، ص10 إلى 12.

² ينظر : المرجع نفسه ، ص12،13.

(463/394) وابن حمديس (527/447) وابن خفاجة ، وكان للأندلسيين توسع في الأغراض الأخرى مثل وصف الممالك والاستتجاد والاستعطاف¹ ، وغيرها من الأغراض الأخرى التي تميّزوا فيها وانفردوا بها.

2 - سيرة ابن خفاجة :

إن شخصية مثل شخصية ابن خفاجة غنية عن التعريف لما لها من ذاع وسط الساحة الأدبية سواء قديما في عصره أو حديثا في عصرنا ، " صاحب الخمریات الطائفة الصيت والمبدع في شعر الغزل ووصف مجالس الأُنس والسرور"²

فلا يزال محطّ دراسة وإعجاب ، فقد كسب هذه المكانة بقدرته على فرض نفسه وشعره وشخصيته وبمؤلفاته ، كان مقيما في شرقي الأندلس ، نبه صيته في عصر دولة المرابطين بعد زوال دولة بني أمية والدولة العامرية ، عُرف بأنّه لم يتعرّض لاستماعة أمراء ملوك الطوائف مع تهافتهم على أهل الأدب والشعر ، كان شاعرا وكاتبا مترسّلا ، فقد كان ابن خفاجة أديب الأندلس وشاعرها ، وقد وصفه العديد من الأدباء في كتبهم من بينهم "المقرّي" في كتابه نوح الطيب³.

ولد أبو إسحاق بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة سنة (450 هـ / 1058م) بجزيرة شقّر (jucar) وهي من أعمال بلنسية شرقي الأندلس ، وإنّما قيل لها جزيرة لأنّ نهر شقّر محيط بها.⁴

لم يكن يغادر ابن خفاجة مكان ولادته في الأندلس وبالتحديد في بلنسية إلا قليلا ، حيث

¹ ينظر : المرجع السابق ، ص15،16.

² نجلاء إسماعيل أحمد ، الإعلام الطائفي ، دار المعتز للنشر والتوزيع ، (د.ب) ، ط1 ، 2017م/1438هـ ، ص25.

³ حسن محمد نور الدين ، الأعلام من الأدباء والأمراء (ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس) ، ص23،24.

⁴ ابن خفاجة ، الديوان ، ص7.

نشأ فيها وترعرع وكبر بين أحضانها وفي طبيعتها ، وشقّر - بفتح السين المثناة وسكون القاف والراء المهملة - وهي بليدة بين شاطبة وبلنسية ، وإتّما قيل لها جزيرة لأنّ الماء محيط بها .¹

أخذ الدروس وتزوّد بالأدب العربية وقد تفتّحت موهبته الشعرية التي نمت من خلال قراءته لشعر أشهر شعراء عصره ، رحل إلى المغرب حين احتلّ " السيد القمبيطور " * بلنسية ، والذي نشر الرعب في أهلها من خلال إحراق الناس الذين يغادرونها وهم أحياء ، وقد عانى الشاعر ابن خفّاجة من وطأة تلك الأحداث المؤلمة ، التي تهزّ كيان الإنسان ، وحزّ في نفسه ما ألمّ ببلنسية على يد جحافل الإسبان فرثاها بأبيات جاء فيها :

عَاثَتْ بِسَاحَتِكَ الْعِدَا يَا دَارُ *** وَمَا مَحَاسِنِكَ الْبَلَى وَالنَّارُ

وَإِذَا تَرَدَّدَ فِي جَانِبِكَ نَاطِرٌ *** طَالَ اعْتِبَارًا فِيكَ وَاسْتِعْبَارُ

أَرْضٌ تَقَادَفَتْ الْخُطُوبُ بِأَهْلِهَا *** وَتَمَخَّضَتْ بِحَرَابِهَا الْأَفْدَارُ²

وأیضا نجده يرثي بلدته ، التي تریّ فيها وقد غادرها بسبب ما جرى لها من كيد المحتل عليها ، فها هو ابن خفّاجة الذي نزح عنها ، يتطلع بحسرة وأنين إلى موطنه في جزيرة شقّر قائلا :

فِيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لِدَهْرِي عِطْفَةٌ *** فَتَجْمَعُ أَوْطَارِي عَلَيَّ وَأَوْطَانِي

مِيَادِينُ أَوْطَارِي وَمَعْهَدُ لُدَّتِي *** وَمَنْشَأُ تُهْيَامِي ، وَمَلْعَبُ غَزْلَانِي³

¹ أبو العباس شمس الدين أحمد ابن محمد بن أبي بكر بن خلّكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، م1 ، نج/ الدكتور إحسان عباس ، دار الصادر ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 1398هـ/1978م ، ص57.

* القمبيطوري : بالإسبانية el cld campeador ؛ معناه السيد الباسل جدا.(إسمه رودريغو ديا دي فيغار) .

² عزوز زرقان ، شعر الاستصراخ في الأندلس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 1971م ، ص139.

³ المرجع نفسه ، ص139،140.

ثم عاد بعدها لوطنه حيث انقطع مدة عن نظم الشعر ، لكنّه سرعان ما عاد واتصل بملوك الطوائف ومدحهم إعجاباً لا تكسباً ، وقد وقف شعره على نقل ألوان الطبيعة ، كان منشأه المترف وبلده الجميل أثر في تغذية خياله ، فلَقِبَ بِجَنَّانِ الأندلس وشاعرها ، حين بلغه الكبر تاب واتّجه إلى الاستغفار والعظة ، كما كَتَبَ كُنُوبًا في الحديث والسنن (كان يخزّ إلى الجبال وحده وينادي : يا إبراهيم > يعني نفسه < تموت ، فيجيب صدى الصوت ولا يزال كذلك حتى يخزّ مغشياً عليه .)¹

توفي ابن خفاجة سنة (533هـ/1138م) لأربع بقين من شوال وهو ابن اثنتين وثمانين سنة (82) ، وفيها قال :

أَيُّ أُنْسٍ أَوْ غِدَاءٍ أَوْ سِنَّةٍ *** لِابْنِ إِحْدَى وَثَمَانِينَ سِنَّةٍ

قَلَصَ الشَّيْبُ بِهِ ذَيْلَ أَمْرِي *** وَطَالَ مَا جَرَا صَبَاهُ رَسْنَهُ

تَارَةً تَخْطُو بِهِ سَيِّئَةً *** تُسَخِّنُ الْعَيْنَ وَأُخْرَى حَسَنَةً²

3 - شعر ابن خفاجة :

قد عُرف عن الأندلسيين ممن سبقوا ابن خفاجة أنّهم توسعوا في مجال الأغراض الشعرية ، التي نظموا فيها وعليه فقد نظم ابن خفاجة في جميع أغراض من سبقوه ، وزاد عليهم تقليده لابن الرومي والمعري ، كما أنّه طرق باباً جديداً وهو باب الإخوانيات ، حيث راسل أصدقاء له وداعبهم في أكثر من مجال .³

ولمّا كانت طبيعة الأندلس ساحرة خلّابة ، غزيرة الجداول ، ولأثّها وارقة الأغصان

¹ عزيزة فوّال بابتي ، موسوعة الأعلام العرب والمسلمين والعالميين ، ج 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 1971م ، ص37.

² حسن محمد نور الدين ، الأعلام من الأدباء والأمراء (ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس) ، ص26،25.

³ ينظر : المرجع نفسه ، ص16،17.

والأفياء ، معتمّة بالورود والرياحين (...). كان من الطبيعي الاحتفاء بها ، وأن يتركوا أشعارا تحكي قصّتها (تراثا من الشّعْر وصف الروضيات ...).¹

ومن بين الذين احتفوا بها ابن خفّاجة ، لقد ذاع صيته في بلاد الأندلس حتى أصبح ملقبا فيها بشاعر الأندلس وأديبها ، فلم يترك غرضا شعريا إلّا ونظم فيه ، " وله ديوان شعر أحسن فيه كلّ الإحسان ".²

كان شعره واصفًا لعناصر الطّبيعة ، فكان رائدا من رواد شعراء الطّبيعة في الأندلس "ينظم ديوان شعر ابن خفّاجة ألفين وثمانماية وستة وستين بيتا (2866) نظمها الشاعر على اثني عشر بحرا (12) ووَزَعها على أربعة أنواع من القافية وعلى عشرين رويّا ".³ ولم ينظم ابن خفّاجة في الشعر فقط ، بل كتب في آخر عمره عند كبره في مجال الدين ، فكتب في كُتُب الحديث والسنة والوعظ ، كونه اتّجه إلى التوبة في أواخر حياته .

من أهم قصائده قصيدة "وصف الجبل" التي خاطب فيها الجبل وكأَنه إنسان ، وهذه تجربة روحية في سبيل المعرفة الدنيوية ومحاولة الوصول إلى حل ، فقد جسّد الجبل على أنّه قد ملّ من الحياة والبقاء صامدا على عكس الإنسان ، الذي يسعى ويبحث عن الخلود فيها وهذه القصيدة تعد من روائع ما نظم الشاعر في شعره .

ومن هذا كلّه وبالرغم من بعد الزمن بيننا ، إلّا أنّها مازالت مكانة ابن خفّاجة في أيامنا هذه ذات مرتبة راقية في مجال الأدب ، ولم تنزل على ما كانت عليه كونه شاعر من الشعراء الكبار ، فمهما كتبنا ومهما عرفنا بهذا الشاعر والأديب الكبير لا يمكن أن نوفيّه حقه ، وإذا ما بدأنا فلن نتوقف لما له من شهرة واسعة ومخلفات فكرية وأدبية رائعة ، وهذا

¹ خالد يوسف ، قصة الأدب العربي ، مؤسسة الرحاب الحديثة ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) ، ص143،144.

² أبي العباس شمس الدين أحمد ابن محمد بن أبي بكر بن خلّكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، م 1 ، ص56.

³ حسن محمد نور الدين ، الأعلام من الأديباء والأمراء (ابن خفّاجة شاعر شرق الأندلس) ، ص29.

الذي كتبناه عنه مجرد لمحة عن حياة هذا الشاعر والأديب الكبير الذي ذاع صيته في الأقطار ، وكان شعره محطّ الأنظار ، ومازالت الدراسات حوله إلى يومنا هذا وإلى ما بعد هذا ، في محاولة لاكتشاف ما يحتويه وما يتضمّنه في طياته .

- ملخص :

إنّ الرّمز أداة فنية يعبر بها الشاعر عن ما يفكر فيه في أشعاره ، وتنقسم هذه الرّموز إلى رموز خاصّة يبتكرها الشاعر وهي ذاتية وأخرى عامّة التي بدورها تتعدّد إلى أنواع منها: الأسطوري ، التاريخي ، الديني ، وهناك الرّمز الطّبيعي الذي هو مجال دراستنا فالماء رمز من رموز الطّبيعة المهمة التي منه تخلق الحياة و بدونه تنعدم ، و لنا في القرآن الكريم آيات هي خير دليل على عظمته و قدسيته ، كما أنّه كان حاضرا في الشعر العربي القديم من العصر الجاهلي حتى العصر الأندلسي ، هذا الأخير الذي تميّز وانفرد بابتكار شعر خاص وهو شعر الطّبيعة ، وبلاد الأندلس إذا ما ذكرناها ذكرنا معها الطّبيعة الساحرة التي تمتاز بها ، ومن بين رواد شعر الطّبيعة من لقّب بأديب الأندلس وشاعرها ابن خفّاجة الذي كان شعره زاخرا بعناصر الطّبيعة وكان الماء حاضرا بشكل واضح فيه ، فكانت مفردات الماء الأكثر توظيفا فيه ثم تليها مفردات المطر ، أمّا أبعاد الماء الدّلالية فتعدّدت إلى : البعد الاجتماعي والذي وصف فيه الخمر ، والبعد النفسي الذي فيه تغزل بمحبوبته ، والبعد السياسي الذي وصف فيه الحروب والمعارك ضد العدو.

– **Abstract :**

The symbol is an artistic tool in which the poet expresses what he thinks of his poems, these symbols are divided into special symbols invented by the poet, which are subjective and other general which are divided into types legendary, historical, religious, and there is a natural symbol that is the field of our study. Water is one of the important symbols of nature that creates life and without it there is no life, where the holy Quran an verses gives us the best proof of its greatness and sanctity, it was also present in ancient Arabic poetry from pre-Islamic to Andalusian period, this latter that was distinguished and devoted to creating special poetry which is the poetry of nature, and the country of Andalusia if we mentioned it, we mentioned with it the charming nature that is distinguished with it, among the pioneers of nature's poetry who were called the writer of Andalusia and their poet Ibn Khafaja, his poem was characterized by the elements of nature and the water was clearly present in his poem, its vocabulary multiplied and the vocabulary of water was the most employed, then followed by the vocabulary of rain, the semantic water dimensions were multiplied : the social dimension in which wine is described, and the psychological dimension in which spins his beloved, the political dimension in which described wars and battles against the enemy.